مشاعر مفترسة



مشاعر مفترسة

أحمد فريد

الناشر
الدار المصرية السعودية
للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة
المالك والمدير العام العقيد شيرين ثابت

اسـم الـكتاب : مشاعر مفترسة

اسـم المؤلف : احمد فريد

سنة النشـــر : 2011م

رقم الإيـداع : 9206 / 2011م

الترقيم الدولي : 0 - 026 - 472 - 977 - 978

الناشـــر

الدار المصرية السعودية

للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة

المالك والمدير العام العقيد شيرين ثابت

www.qubaaelhadetha.com

info@qubaaelhadetha.com

modern_qubaa@hotmail.com

الإدارة : 16أ عمارات العبور - شارع صلاح سالـم
الـدور الثالث - مدينة نصـر - القاهــرة

تليفاكس : 02/22621365 تليفون : 02/24025777

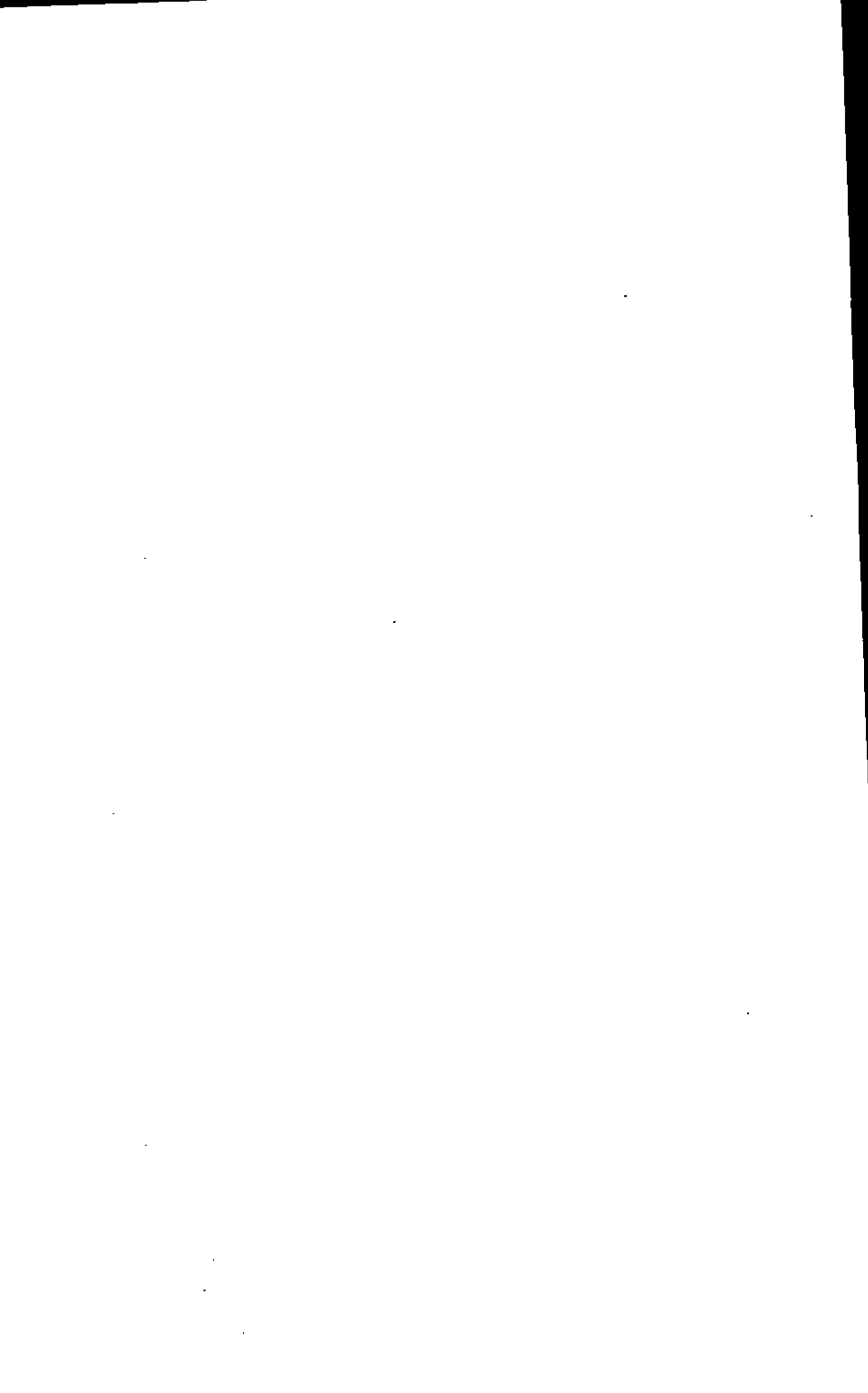
محمـــول : 002/0123140315 - 002/0123171722



لا فرق ما بين الحب الغائب وبين الغدر المرتقب

فكلاهما متآمر على الحاضر !!

أحمد فريد





كطائر فاجأته الأمطار الرعدية، فالتصقت أجنحته المبتلة إلى جانبى جسده الضعيف ولم يعد فى استطاعته أن يفرد ريشه ليحلق فى فضاء عالمه .

كفارس نفق جواده فوقف يصطلى لهيب الشمس بلا قدرة على الحراك ..أشبه بقائد مركب صيد تمزقت شراعه من شدة الرياح فترك أمره مقهوراً للأمواج العاتية تطيح به تارة يميناً وأخرى يساراً .

كإنسان اختطف الموت أصدقاؤه فجأة، ثم تركه يواجه مخالب الوحدة لتنهش فى كيانه وتؤرق حياته .

إنها لحظة عجز مريرة فاجأت زمن العمر والتهمته بضراوة ليكتشف أن حياته كانت مجرد أحلام يقظة استفاق منها بعد غفوة طويلة لا إرادية وهو ينصت إلى كلمات زوجته الهادئة على غير العادة قائلة :

ـ طلقنى يا لمعى .

ارتجفت شفتيه من هول المفاجأة .. وتساءل مذعوراً:

ـ ما الذى تقولينه يا زينب ؟!!

كررت بحزم مرددة :

ـ قلت لك طلقنى .. وأعلم أن قرارى هذا لن أتراجع عنه مهما حدث .

قال مذهولا :

ـ ما السبب ؟!!

أجابت وهى تستدير لتجلس على مقعدها المفضل .. قائلة بإصرار :

ـ بلا أسباب .

ـ تدمرين علاقة دامت أكثر من خمسة وعشرين سنة فى لحظة واحدة .. ثم تقولين لى أن قرارك بلا سبب !

قالت بعناد :

ـ لم يعد الحوار مجدياً .. وأنصحك بأن تحتفظ بصورتك وكرامتك للنهاية وتنفذ ما أطلبه منك .

اقترب منها بخطوة قبل أن يتساءل :

ـ ألم تفكرى فى أبنائنا .. وهل أنتى مدركة لتبعيات قرارك هذا بعد أن تهدمى المعبد فوق رؤوس الجميع ؟!

شعر بكلماتها وكأنها رصاصة الرحمة التى تطلقها لكى تُجْهز عليه وتجنبه آلام كيانه الذى بات عليلا .. حينما أجابت قائلة :

ـ لقد اتخذت ذلك القرار بعد أن تشاورنا جميعاً أنا وأبنائى.. ويجب أن تعلم إنها رغبتنا الصادقة والحقيقية .. فأرجوك لا تضع نفسك فى موقف قد تندم عليه بعد ذلك .

همس مردداً وكأنه يحدث نفسه :

.. تشاورتم جميعاً !!

واستدار بهدوء منصرفاً خارج الشقة، ولم ينتظر وصول المصعد وبدأ يهبط درجات السلم بدءاً من الدور الرابع إلى نهايته وهو يشعر بخطواته وكأنها رصيد ما تبقى من نبضات قلبه .

كان لمعى متوسط الطول ويميل إلى النحافة، له وجه طفولى وعينان دقيقتان تحتميان بنظاره طبية .. وعلى الرغم من أنه تجاوز الخمسين من عمره إلا أن شعر رأسه لا يزال محتفظاً ببريقه ولم تنل منه معالم الشيب على غير العادة فى مثل هذه المرحلة من العمر.

دلـف إلى داخـل أول كـافيـه فـى طريقـه، واختـار لنفـسه مكاناً منزوياً وجلس وهو يستند بظهره إلى الجدار وكأنه يحتمى من طعنة غدر قد تفاجئه من أى مجهول آخر غير الزمن وزوجته.

رفع نظارته السميكة من فوق عينيه وراح ينظف زجاجها وكأنه يتأهب لرؤية ماضيه بوضوح بعد ما تعبق المكان بدخان شاربى الشيشة .

و.. غـاب مع رحلة ذكرياته يبحث عن مبرر واحد لموقف زينب المفاجئ .

وكأنــه دفــع ثمــن تحمــسه لفكـرة مـستحدثة عـن الرجـل الشرقى، حيث تحمل أعباء ومسئوليات إضافية لم يكن متعارف عليها فى ذلك الوقت ومنذ بداية زواجه، فتولى دور الأب والأم فى وقت واحد .

كـان يـؤدى مهـام زوجتـه بكـل حـب واقتنـاع بـصورة مبـالغ فيها . متجاهلاً التلميحات والتعليقات الساخرة من جميع من حوله سواء الأقـارب أو الجـيران أو زمـلاء العمـل .. والغريـب أن زوجته اعتـادت على تلك المهام التطوعية التى كـان يقوم بهـا، وكأنهـا فـرض عليـه مـن نظافـة المنـزل والإشـراف علـى رعايـة طفليهمـا التـوأم مـن ملـبس ومأكـل وكـل مـا يخـصهما فـى هـذه

المرحلة، ولم يكن يشعر بأى حرج أو تضرر وهو يكشف عن مهامه أمام الآخرين والجيران على الأخص .

هكذا كان حال لمعى الأشقر.. المدير العام بإحدى الوزارات الخدمية .

وكأنه سخَّر حياته لخدمة ورغبات زوجته سواء برضاه بعض الوقت أو بغير رضاه أغلب الوقت . فهى استطاعت أن تبرمج وجدانه بأنه قد خلق لتنفيذ تعليماتها بكل دقة، والأغرب من ذلك أنها دأبت على الاستهانة والاستخفاف بكل إنجازاته إلى حد قد يصل إلى الإهانة بشكل مباشر، وكثيراً ما كانت تتعمد أن تفصح عن ضآلة شأنه أمام أبنائه وجيرانه وأقربائه .

تذكر كيف كان يحرص دائماً أن يعود إلى المنزل قبل عودتها من عملها لكى يشرف على تجهيز الطعام وشئون الأبناء، وكيف كان يضع نفسه فى موقف المتأهب دائماً لأى تعليمات تصدر منها مهما كانت غير منطقية وفى أوقات لا تتناسب مع ظروف عمله وأموره الحياتية .

سنوات طويلة استطاع ببراعة نادرة بأن يتعامل بصورتين وشخصيتين مختلفتين تماماً فى كيان واحد .. صورة يتعايش بها أمام زوجته وأبنائه وأخرى فى علاقاته الخارجية

بالنسبة لعمله أو حياته الاجتماعية لدرجة أنه اشتهر بين الجميع بتصرفاته التصادمية غير المبررة نتيجة لتلك الحالة المتناقضة التى كان يحياها .

عاد يتساءل من جديد ..

لماذا هذا القرار ؟!!

.. أنا حرمت نفسى من كل متع الحياة من أجلهم .. تخليت عن أبسط حقوقى كرجل واستعبدت ذاتى لصالحهم .

لماذا هذا القرار ؟!!

كنت مسالماً إلى أبعد حد ولم أتدخل قط فى حياة زينب وتصرفاتها .. أو فى أمور ناجى ونهى خاصة بعدما كبرا وأصبحا فى ريعان شبابهما .

كنت مهموم دائماً باحتياجاتهم . واستطعت أن أصل بأبنائى إلى بر الأمان بعد أن حصلا على مؤهلاتهما الجامعية .

فماذا أفعل بعد ذلك ؟

هل أخطأت؟.. هل تجاوزت حدود المنطق؟.. هل .. وهل!!!

ليتنى أعرف لماذا هذا القرار الظالم ؟!!

لم يكن يدرى أن زوجته قد أسلمت نفسها إلى منطق

العصر.. منطق التجرد من كل التأثيرات الوجدانية كالمشاعر والأحاسيس والخيالات الرومانسية .

كانت البداية أثناء تواجدها بين توأمها فى لحظة مزاح، عندما قال ناجى متهكماً :

ـ عمرى أربعة وعشرون عاماً، ومرتبى لا يتجاوز الخمسمائة جنيهاً وإذا فكرت الاقتران بأى فتاة فسأحتاج من العمر عشرين عاماً أخرى حتى أكون مستعداً لمسئوليات الحياة، وأيضاً الحصول على مسكن وخلافه من تأثيث وما شابه ذلك .. معنى ذلك إننى سأخرج من العزوبية لأدخل إلى سن المعاش .

اشترك الجميع فى الضحك، مما شجع نهى لكى تدلى هى الأخرى بتهكمها قائلة :

ـ أما أنا فمن المؤكد سأكون زوجة ثانية لرجل جاهز وفى سن أبى .. أو سأضطر الزواج من أحد الأثرياء العرب ..و..

صمتت فجأة وكأن مرارة الكلمات قد استقرت فى حنجرتها.

لحظة دوى فيها ناقوس الخطر فى عقل زينب، حتى كاد يفجر رأسها. وكأنها اكتشفت من خلال تلك المزحة أنها ستواجه صداماً عنيفاً مع واقعها .

كانت زينب ذات قوام ممشوق زادها طولاً عن زوجها .. لها بشرة بيضاء وشعر أشقر وعينان رماديتا المقلتين، وملامح وجهها تكاد تنفث عبير الأنوثة الطاغية المتأججة وهى من أهم أسلحتها التى استخدمتها فى تسخير زوجها للخضوع إلى أوامرها.

و.. تذكرت كيف أصرت على الزواج من لمعى دون رغبة والدتها وخالها بعد وفاة أبيها .. وكيف رفضت فكرة الزواج من ابن خالها بسبب حبها الجارف لذلك الغريب عن عائلتها.. وكان من الطبيعى أن يتخذ خالها موقفاً عنيفاً منها ومن والدتها التى لم تكن تملك مقومات الشخصية القوية التى تواجه بها أخيها مما شجعه على استيلائه للميراث المحصور فى الأرض الشاسعة بحجة إدارتها بعد أن تمكن من الحصول على موافقتها كتابياً باستئجار نصيبها فى الميراث .

وعلى الرغم من مرور تلك السنوات الطويلة ووفاة والدتها، إلا إن الخال كان مصراً على موقفه منها ومن زوجها . خاصة أن ولده استعذب عذابه وظل متمسكاً بحبه القديم وعاش على ذكراه بدون زواج .

والآن مات الخال .. وتغيّر الحال .

فلماذا إذن لا تتعامل مع منطق العصر ؟!

ولم تفاجئ بتقبل ولديها لفكرة هذا المنطق الغريب، عندما رددا فى لحظة واحدة عندما ألمحت بالفكرة .. وتساءلا :

.. وهل سنصبح أثرياء بحق !!

أجابت بلا تردد :

ـ نعم بالتأكيد وسنحقق كل ما نريد .. فابن خالى لا يزال راغباً فى الارتباط بى إذا ما تغيّر الحال معى .

وبكل بلادة همس ناجى قائلاً :

ـ على كل حال والدنا سيظل والدنا فى كل الظروف.

ولاحقته نهى معقبة :

ـ طبعاً فنحن لن نقاطعه بكل تأكيد .

وانتهى الحوار، أو انتهت المؤامرة .. وبدأت المأساة .

ولذلك كان الجميع يعلم سبب هذا القرار.. إلا لمعى .

انتبه بأن ساعات طويلة قد تسللت من يومه، والغروب سيطر على الأفق بعد أن طالت جلسته المنزوية فى الكافتيريا .

قرر العودة .

راودته أفكار مشرقة وهو فى طريقه إلى المنزل .. فربما

تعدل زوجته عن قرارها أو لعلّه يتمكّن من إقناعها بالتراجع بعد أن يعرف السبب .

وعند وصوله فوجئ بأسرته مجتمعة على غير العادة، فنادراً ما كانوا يتواجدون فى توقيت واحد .

ولكنهم الآن مكتملين ولا ينقصهم إلا تواجده .. وهم بالفعل كانوا فى انتظاره .

تأمل ملامح زينب فى محاولة لاستقراء ما يدور فى ذهنها، ولكنه فشل بعدما اصطدم بوجهها الجليدى الذى لم يفصح عن أية مشاعر فى صالحه أو ضده .

تنقل بنظره فى اتجاه ناجى ونهى ولاحظ توخيهما الصمت منذ لحظة استقباله .

تقدم بخطوة إلى منتصف الردهة وتوجَّه بكلماته إلى زينب قائلاً بتودد :

ـ كيف حالك الآن يا حبيبتى .. لعلّ أعصابك قد هدأت بعض الشيء ؟!

لم تعره اهتماماً، واكتفت بنظرة سريعة إلى ولديها وهى صامتة .

حاول أن يستدعى ابتسامة فوق شفتيه .. ثم التفت نحو توأمه قائلاً :

ـ ما الأمر ؟.. أراكما صامتين على غير عادتكما !! و..

وقبل أن يسترسل قاطعته زينب باقتضاب قائلة :

ـ هما يعلمان بما أخبرتك به .

جلس بالقرب منهما .. وتساءل بحذر :

ـ ما رأيكما فيما قالته والدتكم ؟!!

تمتم ناجى بنبره منخفضة :

ـ نحن لا نتدخل فى مشاكلكما يا أبى .

رمقه بنظرة متوجسة قبل أن يقول :

ـ هذه ليست مشكلة عادية .. ولكنها تحديد مصير ومستقبل أسرة .

تدخلت نهى بنعومة قائلة :

ـ القرار قراركما .. ونحن لا نملك حياله شيئاً .

التفت نحوها وقال باندهاش:

ـ حتى أنتى يا نهى لا يعنيكِ الأمر !!

فوجئ بزينب وهى تعلق قائلة :

ـ ناجى ونهى ليسوا أطفالا .. فهما يدركان جيداً أننى لا أسعى إلا لمصلحتهما .. ولا أعتقد أنك ستقف فى طريق مستقبلهما .

اندفعت الدماء إلى وجهه وهو يجيبها قائلاً :

ـ كيف تقولين ذلك؟!! .. أنا أعترض مستقبل أولادى .. على كل حال أنا من حقى أن أعرف السبب لهذا التغير المفاجئ.

قالت بتنمر :

ـ رسالتنا كآباء أن نضمن مستقبل أبنائنا .

أجاب بسرعة :

ـ وهل قصرت فى مسئوليتى تجاههما ؟!

ردت بخبث :

ـ قد يكون الأمر خارج عن إرادتك .. فأنت اليوم بدرجة مدير عام وعلى الرغم من ذلك نكاد نكمل التزامات الشهر بصعوبة .. وراتبى مع راتبك لا يكفى لسد احتياجاتنا كما تعلم .. و..

قاطعها على غير العادة قائلاً :

ـ وما الذى كان يمكن أن أفعله أكثر مما فعلت .. لقد أنهيت تعليمهما على أحسن مستوى .. وصارعت المستحيل لكى تحيوا حياة كريمة .. لكى لا تحتاجوا إلى أحد .. وتوليت رعايتهما ومتابعة مراحل عمرهما بكل اهتمام على حساب حياتى الخاصة وطموحاتى .. فما الذى كان فى استطاعتى ولم أفعله .. هل كنت أرتشى لكى أوفر لكم الكماليات المطلوبة .. أم أسرق .. أم ماذا .. ليتك تخبرينى أنت !!!

والتفت فجأة نحو نهى متسائلاً ومسترسلاً :

ـ أليس هذا ما فعلته معكما يا ابنتى ؟!

شعرت بانزعاج للحظة وكأن أحداً قد أيقظها من غفوتها، واكتفت بإسقاط نظرتها إلى الأرض دون أن تتفوه بحرف واحد .

فأدار بصره تجاه ناجى وكرر سؤاله بطريقة أخرى قائلاً :

ـ هل أنا تلكأت فى أى طلب كنت ترغب فى تحقيقه يا ناجى !!

بثبات فاتر فوجئ به يجيبه قائلاً :

ـ نحن كنا مقدرين وضعنا المالى ولم نكن نحملك فوق طاقتك .. والنتيجة أننا تحملنا مرارة الإحباط لأن لا ذنب لأحد

فينـا لمـا يحـدث .. ولكـن الموقـف والظـروف تغـيرت الآن .. أقـصد مـن الظلـم أن نتنـازل عـن حقوقنـا ونحـن فـى أشـد الحاجة إلى المال .

قال وهو يبتلع المرارة فى جوفه :

ـ عن أى ظلم تتحدث يا ابنى ؟!!

لم يجبه .. وأمسكت زينب بطرف الحوار وقالت :

ـ أنت تعلم أن لى ميراثـًا كبيرًا عند خالى .

رمقها مندهشاً وهو يتساءل :

ـ وما دخل ذلك فى موضوعنا.

أجابت بحزم :

ـ خالى مات الآن .

عاود مستفسراً:

ـ لا زلت أتساءل .. ما دخل هذا فى موضوعنا ؟!!

قالت بجرأة تقترب من الوقاحة :

ـ يجب أن أستعيد ميراثـى .. فهذا حق أبنـائى .. و.. الفرصة مواتية الآن لتحقيق ذلك.

تأملها بنظرة فاحصة قبل أن يردد قائلاً :

ـ ماذا تقصدين بأن الفرصة مواتية الآن ؟!

همهمت بصوت خفيض :

ـ التضحية مطلوبة من أجل أولادنا .

قال بصدق :

ـ وأنا مستعد لأية تضحية من أجل إسعادكم جميعاً .

لاحقته قائلة :

ـ وهذا ما أنتظره منك .

دار بنظرته فى عدة اتجاهات وكأنه يبحث عن شيء ما .. ثم تساءل :

ـ ما المطلوب منى ؟!

أجابت بحسم !

ـ أن تطلقنى .

ـ وهل طلاقك منى هو الحل لكل مشاكلنا المالية ؟!

ـ أعتقد ذلك .

حاول أن يتغابى عن فهم مقصدها وهو يقول :

- وهل وجودى فى حياتكم يمثل عقبة لتحقيق أحلامكم ؟!

رددت بإصرار!

- الظروف حتمت علينا ذلك .

أراد أن يضيق عليها الخناق لعلها تتراجع فقال :

- وضحى مقصدك أمام أبنائك .

سرعان ما تبدلت أسارير ملامحها إلى الصرامة والغضب المكبوت كعادتها معه عندما لا ينصاع إلى تعليماتها .. وقالت بحدة وجفاء :

- لا تناور فى حديثك .. ناجى ونهى يعلمان كل شيء .. وهما متفقان معى أيضاً وأنا حذرتك من أن تضع نفسك فى موقف قد لا تحسد عليه .

طرأت فى ذهنه فكرة الانسحاب من أمامها فى هذه اللحظة حتى لا يتعرض لإهانتها أمام أبنائه، ونهض بتكاسل متجها إلى غرفته وهو يتمتم هامساً :

- سأدخل غرفتى لأستريح .. ولعلّ غداً يأتى بجديد بعد أن تهدأ أعصابك يا حبيبتى .

انتفضدت كالنمرة التى تتأهب للانقضاض على فريستها وقالت بنبره خشنة :

ـ أنت بالفعل ستدخل غرفتك .. ولكن ليس لتسترح، بل ستجد حقيبة ملابسك جاهزة بالكامل وعليك أن تحملها قبل انصرافك .

شعر بالأرض تهتز تحت قدميه فاستند على حافة المقعد لعدة لحظات قبل أن يتحرك إلى غرفته وهو صامت تماماً .

دقائق قليلة مرت، ولكنها أشبه بسنوات الدهر كله قبل أن يظهر من جديد وهو يحمل حقيبته بصعوبة .

سكن فى مكانه لعدة لحظات وهو يتفحص وجوههم الواحد تلو الآخر وقد خصّ بنظرته ابنته نهى أكثر منهما .. ثم بدأ يدفع بالحقيبة أمامه دون أن يتحرك أحدهم لمساعدته .

وما كاد يصل إلى الباب حتى ترامى إلى مسامعه صوت زينب وهى تقول بجدية :

ـ سأنتظر منك إرسال ورقة الطلاق خلال يومين يا لمعى .. ومن الأفضل أن تحترم رغبتى ونفسك أيضاً ولا تتباطئ فى إرسالها.

استدار برأسه ببطء شديد حتى تمكَّن من رؤيتها وقال بصوت ملؤه الحزن والأسى:

- ولِمَ الانتظار.. أنتِ طالق يا زينب .

واندفع منصرفاً دون أن ينتظر ردود أفعالهم لقراره المفاجئ .



مـا أصعب أن يفـاجئ الإنـسان بصفعة مـن واقعـه لتلقـى بـه أمـام حقيقـة مريـرة لم تـراوده قـط . وبـأن أحداث عمـره التـى مضت وحاضره الذى يتعـايش معه ما كـان إلا وهمـا تـواطئ مـع الآخرين ضده .

وكأن عطاؤه كان خطيئة ارتكبها فى حق إنسانيته وكيانه .

مجرد فقاعة امتلأت بالوهم وعندما انفجرت تلاشت بلا أثر.

اكتـشف أنـه بـلا أصـدقاء وأمـور أخـرى كـثيرة لم تكـن فـى حساباته، ولم يدرك أهميتها إلا فى تلك اللحظة الغـادرة .

عـاش حياتـه مهمومـاً بأسـرته التـى تعاملـت مـع مـشاعره بمنطقهـا الغريـب فكانـت فـى نظـرهم الطيبـة هـى البلاهـة، والتـضحية مجـرد ضـعفاً، والحكمـة تـضاؤل وعجـز. والاسـتجابة لمطالبهم هى شعار الاستعباد .

ذاب بكيانـه فيهم حتـى تلاشـى وبـات بالنـسبة لهـم مجـرد أداة أو هيكل جمادى ليست لديه المقومات البشرية، ولا يحـق لـه

المطالبة بقدر عطائه ولهذا كان من السهل الاستغناء عنه .. فالفراغ لا يترك أثراً .

مثله تماماً وكأنه كيان بلا ظلال .

وقف من وراء نافذة الفندق يتأمل الأفق باحثاً عن لا شيء.

قاده ذهنه الشارد إلى مرحلة ما قبل زواجه وانتقاله من منطقته إلى منطقة آخرى ..من عالم إلى عالم .. تذكر مرحلة الشباب المبكر وأصدقاء الصبا، وابنة الجيران والكرة الشراب، ومغامرات المراهقة والأحلام التى لم تتحقق .

تذكر منطقة مصر الجديدة، بشوارعها وعطر أزهارها وجمال أشجارها .

تذكر أنديتها وملاهيها ودور السينما والمترو.. تلك المنطقة التى تضم كل الأنماط الاجتماعية بمختلف مستوياتها دون أن يتنبه الغرباء لتلك الخاصية . الكل يذوب فى مداخلها المتعددة من أثرياء وفقراء وما بينهما من شرائح أخرى .

خمسة وعشرون عاماً مضت دون أن يرى موطن مولده، فمنذ انتقاله إلى مسكنه الحالى بالمهندسين، وارتباطه بعمله فى لاظوغلى أصبحت دنياه محصورة ما بين شقته التى يعيش فيها، ووراء مكتبه بالوزارة التى يعمل بها .

ولا شيء آخر!!

لا زيارات مع أحد ولا ارتياد لأية أماكن ترفيهية، ولا علاقات عامة .

و.. تذكر صابر.

تسللت صورته إلى مخيلته واقتربت بشدة من وجدانه .

نعم صابر.. صديق ورفيق الطفولة الذى اكتفى بقدر ضئيل من التعليم وتولى إدارة متجر والده الذى كان يسمى فى تلك الفترة بالخردواتى .

كان صابر مثالاً واقعيًّا لمجتمع تلك المنطقة الفريدة، فهو صديق الجميع على مختلف مستوياتهم .. يرتدى من ملابسهم دون حرج منه ولا تعَالٍ منهم، وينخرط وسط أسرهم بلا تكلف أو محاذير.

كان متجره فى تلك الفترة هو المكان الأشهر لملتقى الأصدقاء.

و.. اتخذ قراره بالذهاب إلى صابر.. إلى ملتقى الذكريات الجميلة .

تضاربت مشاعره ما بين أحاسيس الدهشة واللهفة والحنين عندما اقترب من متجر صابر. كاد لا يصدق ما يراه، وكأنه ترك المنطقة منذ أشهر قليله فقط .

كل شيء كما هو باستثناء الزحام واصطفاف السيارات فوق الأرصفة وعلى جانبيها . لافتة المحل كما هى .. جذب شهيقاً قوياً إلى صدره وكأنه يستنشق عبق المكان أو يستعيد ذكرياته .

إحساس بديع عاد إلى وجدانه بعد غربة طويلة دامت سنوات عديدة.

لحظة أمان واطمئنان شملت كل كيانه المضطرب .

كان لقاءاً رائعاً جمع بينهما ولم يحتاج الأمر أكثر من لحظة المفاجأة فقط لكى يتعانقا بصدق، كلاهما راح يتفحص وجه الآخر متتبعاً التجاعيد التى ارتسمت وطرأت على الآخر.

ازدادت سعادته عندما علم منه أن القدر أتى به فى اليوم والتوقيت المناسب، فذلك هو موعد لقاء الأصدقاء الأسبوعى .

فالحال كما هو، والمجموعة كما هى .. هو فقط الذى أصبح ضيفاً عليهم .

شعر بأنه يستمع إلى أعذب الألحان إلى نفسه عندما فاجأه صابر قائلاً :

- لو تنتظر قليلاً فسوف تلتقى بإبراهيم وميلاد وحسن وإسماعيل .

وأتــاح لــه الانتظــار فرصــة كــبيرة ليعــرف كــل تفاصــيل حياتهم الجديدة .

وبدأ صابر بنفسه .

ســرد مــسيرة حياتــه طــوال الفــترة الماضــية، وأخــبره بأنــه أصبح أبًا لأربعة أبناء جميعهم أتموا تعليمهم الجامعى باستثناء الأخير الذى اكتفى بالثانوية التجارية وهـو الـذى يعاونـه فـى المحل. وبأنـه انتقل إلى فيلته الجديدة الكائنة فى أحد شـوارع فيصل الجانبية .

صابر كما هو يهوى فلسفة الأمور بصورة فطرية بعيداً عن حـصيلته العلميـة، ومعتمـداً علـى رصـيد ثقافتـه مـن معارفـه المتباينة وثقافتهم المتفاوتة .. وكعادته لا يتوقف عن الثرثرة إلا إذا عنفه أحد مازحاً لكى يستمع قليلاً بقدر ما يتحدث .

كان صابر ضئيل الحجم ولكنه قوى البنيان . ومن عادته أن يلفت نظر الآخرين إلى تناسق ألوان ملابسه وارتفاع ثمنها ومـن عادتـه أيـضاً الـتخلص باسـتمرار مـن شـعر رأسـه، وكـان يمنطق هذا التصرف بأنه يساعده على سرعة الحركة فى حياته اليومية، تماماً كسرعة تنقله من موضوع إلى آخر دون توقف أو أن يلتقط أنفاسه بشكل طبيعى .

وقبل أن يحاول لمعى أن يعقب على استرساله .. لاحقه بمسيرة حياة الآخرين.

.. إبراهيم طبيب أسنان ومتزوج من طبيبة وله ابنة واحدة لا زالت تكمل تعليمها الجامعى .. ومن صفاته أنه يعشق التحدث فى السياسة وينصب نفسه المعارض الأوحد والمتطلع على سلبيات المجتمع .

.. وميلاد يملك مصنعاً كبيراً للبطاريات الجافة وهو متعصب كروى إلى أبعد الحدود، لدرجة أنه يغلق مصنعه ويجبر العاملين فيه أن يتابعوا الفريق الذى يشجعه فى أى استاد من استادات مصر، ويمنحهم حافزاً كبيراً فى حالة فوز الفريق .. وأنه غير متزوج مكتفياً بعشقه للكرة .

.. وحسن دمَّر حياته بدأ بلعب القمار وبدد كل ميراث عائلته الكبيرة، وانتهى به الحال كسائق على سيارته الأجرة، وهو الوحيد بينهم الذى يستمتع بمجادلة إبراهيم فى الشئون السياسية ويتبارى معه بالمعلومات التى يكتسبها من مستخدمى سيارته الأجرة .. وهو تزوج من راقصة مغمورة فى أحد ملاهى شارع الهرم وتحوّلت مع مرور السنين بعد اعتزالها إلى مشرفة على مطبخ الملهى ومراقبة عماله، وهى استطاعت من خلال علاقتها المستمرة أن تضمن لزوجها زبائن لسيارته كل

ليله لتجنبه عناء التجول فى شوارع القاهرة لالتقاط أحد من هنا أو آخر من هناك .

.. أما إسماعيل فقد أصبح من أشهر مدرسى الرياضيات فى الثانوية العامة وذاع صيته بين أولياء الأمور، لدرجة أنه اضطر لاستئجار جراج بالكامل وحوَّله إلى قاعة محاضرات يلقى فيها دروسه الخاصة لتلاميذه بعد أن فشل فى استيعاب أعدادهم المتزايدة كل عام على منزله، وأيضاً بعد تذمر زوجته وهو أب لولدين أحدهما ضابط شرطة حديث التخرج والآخر محامى تحت التمرين .

وهو أيضاً على النقيض من أفكار إبراهيم، ويعلن صراحة وبحماس شديد تأييده لكل الحكومات المتعاقبة فى سلبياتها وإيجابيتها، فهو فى نظر نفسه هو الوطنى الوحيد والمؤيد الوحيد .. وفى نظر أصدقاؤه أنه الأكثر ثراءً.

و .. كأنه تلامس مع سلك كهربائى مكشوف فجأة عندما باغته صابر متساءلاً دون مقدمات:

ـ وأنت .. ما هى أخبارك ؟!!

همس بنبره ضعيفة مردداً :

ـ أنا !!

أطلق صابر ضحكة مرتفعة أشبه بالقهقهة، ثم قال مداعباً :

ـ نعم أنت .. ما سر فزعك هكذا ؟ .. هل كنت نائماً وأيقظتك فجأة ؟!

وكأنها بؤرة زمنية انفجر منها أحداث الماضى كله، ولفظتها لحظة مشحونة بكل معانى القهر والحسرة والعجز.

كأنها لدغات من أفاعى الكوبرا قد تبلورت فى شكل قطرات دمع سامة راحت تنساب من مقلتيه بلا إرادة .

وما أشقى بكاء الرجال !!

كانت لحظة أمان قد افتقدها منذ سنوات طويلة ما لبث أن تشبث بها فى وجود صديقه القديم، متخلياً عن كل الأقنعة التى طالما تناوب ارتدائها فى مسيرة حياته .

و.. أخبره بكل شيء .

كيف اغتالت المفاجأة كل أمانيه وأحلامه، وكيف صعقته الحقيقة لتجف بعدها شرايين كيانه كله ويصبح بلا أمل ولا رغبة فى الحياة .

منتهى اليأس أن يشعر الإنسان بأن كل خطى حياته

الماضية ما كانت إلا سيراً فوق الماء .. بلا أثر أو بصمات .. وأيضاً بلا ذكرى وذكريات .

قال صابر بعفوية صادقة :

ـ إنها نهاية العالم بلا شك .. هى مقدمات ليوم القيامة .. أنا أكاد لا أصدق ما أسمعه منك .. كيف تحملت وكيف صبرت وكيف استقبلت هذا الموقف يا صديقى .. لعنة الله على مثل هؤلاء .. و..

قاطعه بلا تردد :

ـ لا تلعنهم يا صابر .. فهم فى النهاية أبنائى وأسرتى .. وربما تكون قد سيطرت عليهم مساوئ المناخ العام الذى تسلل إلى دنياهم .

أجاب بانفعال :

ـ لا تلتمس لهم الأعذار .. وسامحنى يا أخى إذا قلت لك إنهم لا يستحقون أبوتك ولا رعايتك لهم .. لابد وأنهم قد أصيبوا بداء الخسة واللا أصالة، وكأنهم نبت شيطانى بلا جذور .. و..

ومرة أخرى لم يستطع لمعى أن يتحكم فى مشاعره، وترك لمقلتيه فرصة التخلص من قطرات دموعه المكبوتة .

وبتأثر شديد ردد صابر قائلاً :

- لا حول وقوة إلا بالله .. إلى هذا الحد أصبح المال مسيطراً على كل تصرفات الناس .. الأبناء يقايضون حتى بأبائهم فى سبيل مصلحتهم الخاصة . والزوجات يتبرأن من سنوات العشرة .

همس لمعى وهو يمسح جفنه بأطراف أصابعه :

- ما يؤلمنى هو أننى لم أبخل عليهم يوماً بشيء .. ضحيت من أجلهم بكل شيء .. كانوا شغلى الشاغل وهمى الأكبر.. كافحت وعانيت وتحملت المسئولية وحدى بكل رضى وحب .. وفى النهاية كان المقابل هذا الجحود الشاذ .

- التضحية يا صديقى يجب ألا تكون إلا لمن يستحقها .. و..

صمت برهة ثم استطرد قائلاً :

- أمثال أفراد أسرتك كالوحوش .. فأنت قد تمد يدك بالطعام لحيوان حبيس وراء قضبانه فيفاجئك بالتهام ذراعك .. تماماً كالذى تحاول إنقاذه من مشكلة ما فتجده يغدر بك ويورطك فى مشكلة أخرى أنت لا ذنب لك فيها .

و.. فى لحظة تغير الموقف تماماً بعد ظهور الأصدقاء الأربعة الآخرين الذين استقبلوا وجود لمعى فى المكان بفتور

غريب، وكأنهم بلا ذكريات معه .. وهو أيضاً لم يفاجئ من تصرفهم، وكأنه بات يتوقع ما هو كل أسوأ فى دنياه .

وكعادة صابر وجدها فرصة للاسترسال فى الحديث، وتطوع من تلقاء نفسه بأن طرح مشكلة لمعى أمامهم بكل تفاصيلها دون مراعاة لمشاعر ضيفه القادم بعد غياب .

واشتد حماسه أكثر عندما لاحظ اهتمام الأربعة الجدد بحديثه وحرصهم الفضولى على الإنصات من غير أن يقاطعوه كسابق عهدهم معه .

وعلى غير المتوقع من ردود الأفعال، فاجأهم إبراهيم طبيب الأسنان المعارض .. بقوله مؤكداً :

ـ هذه واحدة من مساوئ العولمة .

أسرع حسن زوج الراقصة المعتزلة معقباً ومؤيداً :

ـ والله عندك حق يا دكتور إبراهيم .

تساءل صابر لمجرد المشاركة فى الحوار:

ـ وما دخل العولمة يا إبراهيم بك فى مشكلة كهذه ؟!

أجابه وهو يضع ساقاً فوق الأخرى :

ـ نحن أصبحنا كالمرأة الغبية فى تقليدها الأعمى، التى

تلهث وراء الموضة دون مراعاة لظروف تكوينها الجسمانى.. انظر إلى ملابس البدينة أو النحيفة، والقصيرة والطويلة، والسمراء أو الشقراء .. تجدهن جميعاً يرتدين نفس الموديلات .. يا أخى منظرهم يثير الشفقة قبل السخرية .

وفجأة كانقطاع التيار الكهربائى تدخل ميلاد رجل الصناعة قائلاً بجدية :

ـ ما رأيكم فى مباراة الأمس؟ .. المفروض تكون النتيجة ثلاثة صفر على الأقل .

رمقه إبراهيم بنظرة استهجان سريعة .. ثم تحول إلى لمعى قائلاً :

ـ ألا ترى أنى محق فى كلامى يا لمعى بك .

اذدرد ريقه، ثم حاول أن يجيبه ولكنه لم يستطع .. غيظاً ودهشة .. مما شجع الآخر لكى يتعملق فى حديثه مستطرداً :

ـ الخصخصة .. والفهم الخاطئ للمجتمع الرأسمالى .. وسيطرة رجال الأعمال .. والبطالة والمحسوبية والرشاوى .. وتخنث الشباب .. واسترجال الفتيات .. وغيرها من الأسباب أدت إلى هذا الخلل الاجتماعى .. و..

وهنا قاطعه إسماعيل مدرس الرياضيات .. وقال بانفعال:

ـ مـا هـذا الهـراء والافـتراء الـذى تقولـه يـا دكتـور!! .. وكأنـك لا ترى المصانع التى شيدت والبنية الأساسية والتحتيـة التى أعيـدت، والانفتـاح الاقتـصادى، والاسـتثمارات التـى أضـافت إلى دخلنـا القـومى .. وملاحقـة الانفجـار السكانى بالمـساكن والمـدارس والجامعـات والمستـشفيات .. النـاس تتذمر من الاختناقات المرورية دون أن يدركوا أنهم السبب الرئيسى فى ذلك .. يـا سيدى الأسرة الواحدة اليوم تملك ثلاث وأربـع سيارات .. أم أنك لا تنظر إلا لنصف الكوب الفارغ كما يقولون .

ألّحت رغبة التفلسف عند صابر فقال متسائلاً بتهكم :

ـ المهم .. من الذى يشرب النصف الملآن يا جماعة !!

انطلق الجميع فى ضحكاتهم . باستثناء لمعى الـذى بدا كالأصم وهو يتابعهم دون أن يحرك ساكناً .

و.. فجأة نهض الواحد تلو الآخر وهو يردد قبل انصرافه .

ـ .. السلام عليكم .. نراكم الأسبوع القادم .

هكذا .. !!

وكأنها حلقة من مسلسل تلفزيونى وانتهت .. لا شـيء .. مجرد فترة زمنية أراد كل منهم أن يمضيها فى هذا المكان ثم يذهب إلى حالة سبيله .

صورة مصغرة للواقع الكبير!!

لا أحد استمع لأحد .. ولا أحد اهتم بأحد .. ولا أحد أضاف لأحد .

الأنا .. هى النغمة الجديدة لصوت العقل والضمير والوجدان .

انتبه صابر إلى أنه قد انفرد مره أخرى بلمعى وفاجأه متسائلاً :

ـ وأين تقيم الآن يا لمعى ؟

ـ فى فندق بوسط المدينة .

اعتدل فى جلسته قبل أن يبادره قائلاً :

ـ هذا غير منطقى .. ثم إلى متى .. وكيف ستتحمل كل هذه المصاريف !!

أجاب لمعى مبتئساً :

ـ لم أفكر فى هذا من قبل .. المفاجأة أذهلتنى وشلّت تفكيرى.

ربت على كتفه قائلاً بلهفة :

ـ اسمع .. أنا عندى اقتراح وليتك تستجيب له .

ـ ما هو ؟!

أجاب مسرعاً :

ـ مسكن الأسرة القديم لم أتخلَّ عنه، احتفظت به كمخزن لبضاعة المحل ..

وأنا لا أحتاج منه إلا غرفة واحدة .. فما رأيك يا بطل ؟!!

ـ رأى فى ماذا!!

ـ أن تنتقل إليه .. و..

ضحك بطيبة واسترسل قائلاً :

ـ وستدفع إيجاره بدلاً منى .. على الأقل دعنى أستغلك أنا أيضاً .. فالأقربون أولى بالاستغلال يا عزيزى حسب مبدأ أبنائك .

واستمر فى ضحكاته .

همس لمعى بنبره خفيضة مردداً :

ـ ولكن ..

لاحقه صابر بحماس :

ـ ولكن ماذا يا رجل .. المنزل لا يزال من طابق واحد ..

وجيرانك هم أصحاب العقار.. لا أحد غير الست صفية هانم وابنتها وهما الورثة ولم يفكرا فى بيع المنزل منذ وفاة والدها وأيضاً بعد وفاة زوجها .. أقصد المكان مناسب تماماً لك .. لا إزعاج ولا تدخل أحد فى حياتك .

تساءل بحذر :

ـ انت جاد فى كلامك يا صابر ؟

قال مؤكداً :

ـ طبعاً جاد فى كلامى .. لكن بشرط أن تعفينى من إيجاره ويظل المسكن باسمى .. و..

وعاد يقهقه ثم أردف قائلاً :

ـ أنت زبون لقطة .. ستدفع فلوسى وأيضاً تحرس لى بضاعتى .

انفرجت أسارير لمعى لأول مرة، وهو يتساءل بلهفة حقيقية:

ـ متى يمكننى الانتقال ؟

ـ من الآن لو أحببت .. ولكن أمهلنى ثلاثة أيام لكى أجهز لك المكان وأنظفه.. وعليك أنت تدبير لوازمك .

وقف فجأة وهو يردد قائلاً قبل انصرافه :

ـ طبعاً .. طبعاً فى الحقيقة يا صابر أنا لا أعرف كيف أشكرك .. فأنت أنقذتنى من ورطة كبيرة .. و..

انصرف .

راوده إحساس غريب، لم يعرف فى حينها ترجمته .. هل كان شعوراً بالثقة، أم تحدياً لواقعه .. أم استبشاراً بغده .

كان لا يعرف .. ولكنه فى الوقت ذاته منتشياً وسعيداً به .



عندما تتوحش الأحلام، وتصبح كالكائنات المفترسة التى ما تلبث أن تنقض على حالميها ولا تترك منهم سوى البقايا .. مجرد بقايا .

هكذا كان حال أسرة لمعى فى الفترة الماضية .. تركوا أنفسهم طواعية لأحلامهم المتربصة بنفوسهم الضعيفة، واستسلموا لأخيلتهم المريضة وراح كل منهم يختلق فى أعماقه عالمًا وهميًّا خاصًّا به لا يعيش فيه أحد غيرهم . وكأنهم جزر متفرقة وسط الكيانات البشرية التى حولهم .

لم تعد زينب تفكر إلا فى انقضاء فترة العدة، وقد انقضت بالفعل .

وأصبحت مستعدة لبدء أولى خطوات مخططاتها للمرحلة الجديدة . وكانت من أوائل اهتماماتها هى التدريب على استعادة عبق أنوثتها كامرأة، وراحت تراجع ذاكرتها مع قراءة سيناريوهات متعددة استلمتها من فكرها الشيطانى فى كيفية

نقل رغبتها إلى ابن خالها مصطفى الشيمى، بحيث يبدو الأمر طبيعياً وكأنها رغبته هو شخصياً .

ونهى التى باتت تقضى لياليها وهى تحتضن أحلام اليقظة فى أعماقها، لاقتناء السيارة الفاخرة والملابس غالية الثمن والحلى والمجوهرات والتباهى أمام صديقاتها وزميلات العمل، بما لديها من إمكانات مالية تمكنها من تحقيق كل طموحاتها وعلى قمتها فارس الأحلام الأسطورى الذى حتماً سيظهر عندما تفوح منها رائحة الثراء .

بينما ناجى كان أكثر واقعية منهما، وبادر بفتح حساب مصرفى بكل راتبه تمهيداً لاستقبال الأرصدة الجديدة .

لم يكن الفجر قد بدأ فى اختراق ستار الليل بعد . عندما زحفت زينب بخطى ثعبانية فى اتجاه غرفة ابنتها .. فهى مرهقة والأرق قد تمكن من ذهنها تماماً ولهذا قررت أن تطلق الشرارة الأولى لمخططها فى صباح اليوم التالى . واستقر فكرها على أن تكون نهى ابنتها هى وسيلتها لتنفيذ ما يدور بخلدها .

فوجئت بها هى الأخرى لم يغمض لها جفن طوال الليل .

فبادرتها بنبره خافتة:

- ألا زلتى متيقظة يا نهى ؟!

حاولت الادعاء بغير الحقيقة، وأجابتها قائلة :

ـ لا يا أمي.. فأنا استيقظت لتوي فقط .

جلست أمامها على طرف الفراش .. ثم همست بجدية :

ـ إذن حاولي التركيز معي .. فالموضوع لا يحتمل أي أخطاء .

اتسعت عيناها، وكأنها تحثها على الاستمرار في الحوار.. و..

واصلت زينب حوارها دون توقف، وهي تسرد عليها تعليماتها بكل دقة، وأخبرتها بما تريد .

إذن عليها الذهاب إلى مصطفى الشيمي، وكأن والدتها قد كلفتها بإحضار مبلغ الإيجار السنوي للأرض بدلاً من شقيقها كالعادة .

وطالبتها بأن تلقي بمعلومة انفصالها عن والدها من خلال الحوار بغير تعمد وتلمح له كيف أن والدتها لا تمل من الحديث عنه، وبأنها دائمة استدعاء ذكرياتها في فترة الشباب معه ومع خالها، وأن الظروف هي التي باعدت بينهما .

وعادت تحذرها من أن يبدو الأمر مخططاً حتى لا تفشل في مهمتها .

ثم كررت قائلة :

ـ ولا مـانع أن تلمحـى لـه بموافقتـك أنـت وأخـوك علـى أى تطور يحدث بينى وبينه مستقبلاً .

تساءلت بخبث :

ـ أى تطور تقصدينه يا أمى ؟!

رمقتها بنظرة فاحصة وهى تكبت غيظها .. ثم قالت :

ـ أتدعين البلاهة يا نهى .. هذا ليس وقت المزاح !!

ضحكت بصدق .. ثم قفزت نحوها تقبلها وهى تردد:

ـ ستكونين أجمل وأروع عروسة فى الدنيا يا غالية .

انفرجت أساريرها انتشاءً .. وهمت بالانصراف قائلة :

ـ سأتركك لتستريحى الآن. لكى تكونى مستعدة غداً .

وتركت الغرفة منصرفة .

وجاء الغد .

جاء .. ليحمل لنهى مفاجأتين لم تكن تتوقعهما عند لقائها بمصطفى الشيمى .

فهى ذهبت وهى ترسم فى ذهنها صورة للرجل الريفى الثرى، الذى يرتدى الجلباب الفاخر ومن حوله خفراء الأرض

بأسلحتهم، وعلى وجهه قسمات الحدة والغلظة . ولهذا تعمدت الاحتشام والبساطة فى ملابسها وتنازلت عن الكثير من مكياجها، كما كان يشغلها الأسلوب الذى سوف تتبعه مع بداية حوارها معه.

ولكن المفاجأة بهرتها، بل وأفقدتها كل ترتيباتها.

كان مصطفى فارع الطول وقوى البنيان، له بشره بيضاء وشعر أشهب .عيناه حالمتان فيهما بريق يضفى ذكاءً على مقلتيه .. هادئ النبرة ومتزن الخطى، متواضع بوقار وواثق من نفسه بكبرياء .. متأنق فى ملابسه العصرية، وفوق شفتيه ابتسامة ودودة بلا مبالغة .

لم تستطع هى أن تخفى انبهارها بقدرته على الإنصات الجيد، وتعبيرات وجهه المتزنة .

تعمدت الصمت أكثر من مرة لكى تستمع إلى نبرة صوته الدافئة .. تساقطت منها الأفكار كأوراق الخريف، وتشتت ذهنها بعد أن فقدت السيطرة على مشاعرها الخفية والتى اضطربت فجأة أمامه دون أن تجد مبررًا لذلك .

شعرت بأنها قد أمسكت بطوق النجاة الذى أنقذها من توترها .. عندما بادرها بتؤدة :

ـ فى الحقيقة والدتك إنسانة عظيمة .

حاولت أن تعلق .. ولكنها فشلت فأردف مسترسلاً :

ـ وليس غريباً أن تكون ابنتها فتاة جميلة ورائعة مثلك .

اندفعت الدماء إلى وجنتيها، واكتفت بابتسامة مرتعشة على طرف شفتيها .. فعاد يقول بجدية :

ـ أعلم أن لك أخًا توأمًا .. ولكن فى الحقيقة هناك فارق بعيد فى الشبه بينكما .. اعتقد أنه يشبه أباك أكثر.

وجدتها فرصة ملائمة لأن تنفذ تعليمات والدتها .. فقالت مسرعة :

ـ لقد انفصلا منذ أربعة أشهر تقريباً .

تعجبت من رد فعله الفاتر عندما قال :

ـ هكذا الحياة دائماً .. إنها كأمواج البحر لا تستقر على حال.

أجابت بجرأة :

ـ فى الحقيقة .. أمى دائماً ما كانت تتحدث عنك بكل خير.

أجاب باقتضاب :

ـ أعلم أنها كانت تحب خالها جداً .

رمقته بنظرة مندهشة قبل أن تعلق قائلة بدلال :

ـ خالها فقط !!

أربكتها نظرته إلى عينيها قبل أن يقول :

ـ أميز ما فى الماضى أنه مجرد ذكرى .. سواء إن كانت ذكريات سعيدة أو مؤلمة .

همست إلى نفسها فى صمت :

.. من أين لك يا أمى بكل هذه الثقة، وتلك التصورات الواهمة ؟!!

فاجأها على غير المتوقع متساءلاً :

ـ وماذا عنك أنت ؟!

ردت بارتباك :

ـ أنا .. عنى أنا !!!

اتسعت ابتسامته الهادئة وهو يؤكد قائلاً :

ـ نعم أنتى .. حديثنى عن نفسك قليلاً أو كثيراً حسبما ترغبين .

لم تجد ما تحكى عنه بالنسبة لحياتها .. مجرد فتاة عادية لها أحلام متواضعة، وتعمل فى وظيفة بإحدى الشركات الاستثمارية، وليس لها تجارب أو علاقات عاطفية مؤثرة .

عاشت بين أبوين لكل منهما عالمه الخاص .. شقيقها التوأم لا يمثل لها أى تميز عن الآخرين .. وهذا كل ما فى الأمر.

وكأن سردها البسيط والسطحى قد مهد لها الطريق بسهولة لكى يتحدث عن نفسه، تحت إلحاح شديد من إحساس غريب فوجئ به يدغدغ وجدانه أمامها .. وجاءته الفرصة مواتية عندما استجمعت شجاعتها وسألته بحذر:

ـ وماذا عنك أنت ؟!

و.. أخبرها بكل شيء .

عن ثقافته وتعليمه وحصوله على الماجستير فى مجال الزراعة حسب رغبة والده لكى يباشر الأرض .

وكيف تم الاتفاق بين أبيه وجدتها بحكم نشأتهما الريفية واتخذا سوياً قراراً دون إرادته بأن يرتبط بأمها حتى لا تتفتت الأراضى بين الدخلاء على العائلة .

ثم حدثها عن المفاجأة المدوية التى أعلنت عنها والدتها برفضها من الزواج منه، وإصرارها على الارتباط بأبيها .. وهو ما أثار فزع الجميع وكانت النتيجة هى ثورة جدتها إلى أبعد الحدود، وأصرت على توثيق عقد إيجار لأبيه لمدة خمسين عاماً يمتد أثاره لورثته .لكى تفوت الفرصة على والدتها بزواجها من الشخص الغريب .

فاجأته قائلة بهمس وكأنها تتحدث مع نفسها :

ـ ألهذا السبب رفضت الزواج من غير أمى ؟!!

اندرد ريقه وكأنه يبتلع ذكرى لا يريد استعادتها .. ثم أجاب بهدوء مثير :

ـ لا .. لم يكن هذا هو السبب، لأننى فى الأصل لم أكن صاحب الاختيار أو القرار.

تأملته بدهشة واضحة، وقد ارتسمت كل أسارير التعجب على وجهها دون أن تتفوه بحرف واحد .

وكأنه أدرك ما يدور فى خلدها فاسترسل قائلاً :

ـ كل محاولاتى مع والدتك كانت من أجل أن أثنيها عن قرارها بالزواج من والدك .. بناءً على رغبة والدى وجدتك .. وعندما أصرت زينب على قرارها .. انسحبت أنا بهدوء .. ولكن للأسف الجميع اعتبر انسحابى هو استسلامى للأمر الواقع الذى أدى بالتالى إلى قهرى ومعاناتى من جراح فراقها .. والحقيقة كانت غير ذلك تماماً.

رددت فى ذهول متسائلة :

ـ إذن لماذا لم ترتبط بغيرها ؟!

لاحقها دون تردد :

- لسببين كنت صاحب القرار فيهما .. الأول لأنني كنت أرغب في استكمال دراستى العليا بعد تخرجى من كلية الزراعة .. والثانى ..

صمت لعدة لحظات وهو يتأمل ملامحها .. ثم عاد مستطرداً:

- والثانى بأنى اتخذت قراراً بألا أرتبط بأية إنسانة إلا إذا عشقها قلبى من أول لقاء .. و..

ترقرقت على شفتيه ابتسامة لها معالم السخرية والأسى .. ثم أكمل قائلاً :

- ولكن يبدو أن الزمن سرق عمرى .. بعد أن اقتربت من الخمسين ولم تظهر فتاة أحلامى طوال السنوات الماضية .

شردت بذهنها بعيداً عنه دون إرادتها، وغابت مع خواطرها التى قفزت فجأة من أعماقها لتغشى عينيها وتفصلها عن واقعها وعن رؤية أى شيء حولها .

.. هل ضاعت الأحلام وتبخرت الأمانى !!

.. هل أغلقت أبواب الأمل للمستقبل الذى كنت أتمناه !!

.. هل كانت الثروة مجرد هواجس أوحت لنا بها أمى !!

و.. انتبهت أنه قد غادرها لعدة دقائق، ثم عاد وهو يمد إليها بمظروف قائلاً بتأدب شديد :

ـ كدت أنسى سبب مجيئك يا أنسة نهى .. تفضلى هذا الشيك وهو قيمة الإيجار السنوى للأرض، والذى أتيتِ من أجله .

بعفوية غريبة وبقدرة فائقة على التحول من حال إلى حال . نظرت إليه بعين الأنثى التى توحى بما فى صدرها دون أن تبوح به .. وقالت بنبرة دافئة :

ـ ربما يكون هذا سبب مجيئى منذ سويعات .. ولكن الآن ..

سكتت عن عمد، لكى تعبر عن ارتباكها المصطنع .. ثم عادت تقول بتلكؤ :

ـ ولكن الآن أعتقد أن السبب قد تغير دون أن أدرى .

أخذته المفاجأة بعنف .. وبدا متلعثماً وكأنه رجل بلا خبرات .. ثم همس بتردد :

ـ ساعدينى .. لكى أفهم .

أجابت بدلال مثير :

ـ لا أعتقد أن إحساسك سيبخل عليك بالمساعدة .

تراقصت الابتسامة مرة ثانية فوق شفتيه .. ثم قال بحذر:

ـ إحساس اختلف عما كنت أشعر به طوال السنوات الماضية.

سارعت قائلة :

ـ تأكد أنه حقيقى وصادق .

حاول بارتباك بأن يمد إليها بالمظروف مره أخرى، ولكنه تراجع سريعاً، عندما أشارت برأسها رافضة .. وقالت :

ـ سأخبرهما بأننى لم أجدك اليوم .. حتى أتمكن من ..

ثم توقفت عن حديثها، وأسقطت نظرتها إلى الأرض ادعاءً بالخجل .

بادرها بلهفة متساءلاً:

ـ لماذا ؟... أقصد !!!

همست بنبرة منخفضة:

ـ لكى أتمكن من أن أراك مرة ثانية .

كادت الكلمات تنفلت من فمه صارخاً :

.. نعم أنتى التى كنت أبحث عنها طوال عمرى .

ولكنه تماسك بصعوبة، وقال باتزان زاد من انبهارها به :

- سأنتظرك بدءاً من هذه اللحظة التى أنتى فيها أمامى الآن.

وبلا تعقيب تركته وانصرفت مسرعة، وكأنها بكلمة السر تلك هى التى ستفتح أمامها كل الأبواب الموصدة، ستنزع غطاء القمقم الذى طوى آمالها، وأيضاً سوف تكسر قيود أحلامها لتنطلق إلى آفاق الواقع الجديد .شعرت وكأنها بلا ماض ولا ذكريات .. لم تعد تذكر شيئاً عن حياتها السابقة .

فقدت ذاكرة ماضيها وانتمائها وحاضرها !!

لا شيء يهم بعد ذلك .. لا أم ولا أخ .. ولا أب .

هى فقط التى ما زالت على قيد الحياة بالنسبة لنفسها، والآخرون أموات بقلوب نابضة .. وليكن بعد ذلك ما يكون !!



الشمس تشرق لمن ينتظرها .

هكذا شعر لمعى فى عالمه الجديد .. لم ير السماء فى مثل صفائها كما يراها الآن، ولم يتنسم رائحة عطر الزهور كما يستنشقها فى حاضره .. كل وجوه البشر فى نظره لا تحمل إلا أسارير الطيبة والمحبة .

وكل طيور الكون تغرد أنشودة واحدة عن السلام الاجتماعى الذى وجد نفسه محاطًا به.

فما أروع أن يشعر الإنسان بأن لوجوده معنى، وبأنه يمثل قيمة غالية بالنسبة للآخرين .أخيراً رحلت عنه غربة الوجدان وأصبح يتذوق الحياة وينعم بلياليها .

شعر بدفء الحب الحقيقى داخل مجتمعه الصغير والجديد .. الكل يحبونه والجميع يقدرون مكانته ويحترمون آراءه.

أدرك لأول مرة بأن فى الوجود ثمة علاقات غير مغرضة تظللها معانى غير زائفة وتتوجها عطاءات بلا مقابل .

كانت صفية وابنتها سارة هما أول سطر يكتب فى سجل أحداث واقعه الجديد .

لأول مرة يشعر بأن هناك من يهتم بأمره وبوجوده . وكأن كل الأطراف كانوا ينتظرون قرار القدر بعودة الغائب إلى دياره.

صفية وجدت فيه الرجل الذى تحمى من خلاله أسطورة وفائها الفريد لذكرى زوجها الذى رحل عنها بعد وفاته فى حادث سيارة. وهى ما زالت تحمل طفلتها الرضيعة فوق صدرها .

وجدت عنده الأمان لحياتها والتقدير لمشاعرها. واحترام قدسية ماضيها وذكرياتها التى عاشت عليها وبها طوال سنوات ماضيها .

وسارة منحها القدر الأب البديل بعد أن عانت مرارة اليتم طوال عشرين عاماً .. ذابت فى أبوته وتغلغت فى وجدانه حتى بدت وكأنها من صلبه . وكم كانت سعادتها وهى تناديه مرددة يا أبى .

أصبحوا أسرة واحدة ولكنهم فى مسكنين متقابلين .. حياتهم مشتركة ومسئولياتهم محددة، ولكل منهم دوره يؤديه بصورة طبيعية دون تكلُّف أو زيف .

يعود من عمله ليجد كل شيء فى مسكنه قد أعد

لاستقباله لكل احتياجاته في حياته المعيشية لما يوفر له الاستقرار والهدوء النفسي .

اعتادوا الالتفاف حول مائدة الغذاء يومياً بالتناوب في المسكنين، كما ألزموا أنفسهم ببعض الوقت قبيل غروب الشمس كل يوم للتحاور والتشاور في أمورهم، ما لم تكن هناك أحداث مفاجأة تستدعى مشورته في أي وقت .

وبرغبتهما عرف عن حياتهما الكثير، ولم يحاولا أن يتطفلا على حياته الماضية .

تميزت صفية بملامحها الفرعونية، وبقوام يميل إلى النحافة بالإضافة لبشرتها التي بلون زهرة عباد الشمس، وعينيها المكحلتين بسواد طبيعي له بريق كسطح النيل الهادئ عندما يفترشه ضوء القمر في لياليه الصافية .

بينما سارة كانت متفوقة في كل شيء، في دراستها وجمالها وأخلاقها .

أنهت دراستها الجامعية بحصولها على ليسانس آداب إنجليزي، والتحقت بعمل كمترجمة في وكالة الأنباء .. كان أكثر ما يميزها هو نبرة صوتها الهادئة جداً وجدائل شعرها الطويل الغارق في سواده، وابتسامتها الرقيقة الخجولة .

وعلى الرغم من قصر مدة لقائها بلمعى إلا أنها تعاملت معه كوالد حنون تعتمد عليه فى كل أمورها الشخصية والعملية، كما أنها لا تخفى عنه شيئاً . وتوطدت العلاقة بينهما لدرجة أنها كلما أرادت مغادرة المنزل لإتمام أية مهمة تتعمد الاستئذان منه من فرط إحساسها بمسئوليته عنها .

كان لمعى سعيداً بحياته الجديدة التى أصبحت مشحونة بعلاقاته الاجتماعية والإنسانية، وبعدما نصبته الظروف على قائمة أصدقائه الجدد والقدامى حيث اندمج فى نسيج تلك العلاقة، وأصبح عضواً رئيسياً بينهم، يشاركهم فى الرأى أحياناً ويعارضهم أحياناً أخرى .

وعلى الرغم من درجة اشتعال حواراتهم وانفعالاتهم إلا أنها تميزت بعدم التوتر والانفلات أو التنافر بينهم .

وكم كانت سعادته عندما فاجأه صابر متسائلاً أمام الجميع وهو يخصه بكلماته قائلاً :

ـ عندى عتاب عليك يا أستاذ لمعى .

سأله مندهشاً :

ـ لماذا يا صابر.. أنا لا أذكر أنى تصرفت أى تصرف يضايقك ؟

قال ضاحكاً:

ـ أنت رجل طيب .. ولا يمكن أن يصدر عنك شيء مسيئ لأحد .. ولكن .. أنا عاتب على الآنسة سارة .

انزعج بصدق وهو يتأمل الوجوه التى حوله .. ثم ردد :

ـ سارة .. وما دخل سارة فى الموضوع !!

ـ بالأمس ذهبت إلى شقتك لأنى كنت فى احتياج لأحد الصناديق المخزنة فى الغرفة، وعلمت بأنك غير متواجد .. ولكنى فوجئت بالآنسة سارة تقول لى بأنها تعتذر لعدم السماح لى بالدخول لأن بابا لمعى غير موجود .

لم يستطع لمعى إخفاء سعادته من موقف سارة .. وقال بلا تردد :

ـ هكذا يكون تصرف الفتيات المحترمات .. و..

سكت مضطراً عندما ترامى إلى سمعه همسه ردده ميلاد، وهو يكرر:

ـ بابا لمعى !!

لم يعره اهتماماً .. ووجدها الدكتور إبراهيم فرصة ليمارس حواراته الاعتراضية وتدخل فى الأمر قائلاً بلا مناسبة :

ـ عندها حق يا أخى .. على الأقل هى أفضل من شباب كثير فى هذا الجيل الذين امتلأت رؤوسهم بالتفاهة .. لعنة الله على العولمة وما جاء من ورائها .. و..

اعتدل فى جلسته بعدما أمسك بأطراف الحديث، وتوجه للجميع مستطرداً :

ـ يا عالم هناك دول أغلقت على نفسها، ولم تسمح بتلك التيارات الغريبة أن تدخل بلادها، ولذلك حمت شبابها وأبناءها من الانحلال وسلبيات الخصخصة التى أدت للمزيد من البطالة واللا انتماء .

ولأول مرة يجد لمعى نفسه مضطراً لمواجهة آراء إبراهيم . فقال معقباً :

ـ الدول التى تتحدث عنها يا دكتور قد أغلقت على شعوبها وحرمتها أبسط حقوقها من الديمقراطية والتطور والتحديث التكنولوجى .. و..

قاطعه بحماس :

ـ الشعوب بتثقف نفسها ذاتياً، وليست فى حاجه للتقاليد المستوردة .

فجأة أطلق حسن ضحكة مجلجلة، وصاح مازحاً :

ـ ثقافات مستوردة كالملابس والمنشطات الجنسية .

فاجأهم إسماعيل بكلماته القاطعة :

ـ أى إنسان ضد التطور والانفتاح على العالم الخارجى، هو إنسان إما حاقد أو جاهل أو مغرور.. أو موتور أيضاً .. و..

ودون مقدمات تدخل ميلاد فى الحديث وكأنه يؤيد ذلك المنطق قائلاً :

ـ أو يكون غير رياضى ولا يفهم فى معنى الرياضة وأخلاقياتها .

بدا الحوار على غير هوى صابر، ففاجئ الجميع بسؤاله للمعى قائلاً :

ـ ولكن .. ما قصة بابا لمعى هذه ؟!!

التفت نحوه وأجابه بامتعاض مكبوت :

ـ وما الغريب فى ذلك يا صابر.. هى بالفعل كابنتى تماماً .

وعن غير عمد فجر المأساة فى صدر لمعى عندما قال بعفوية:

ـ والله فيها الخير.. على الأقل هى أفضل من ابنتك التى تآمرت عليك .

شعر لمعى وكأن صخرة ضخمة قد سقطت فجأة فوق صدره .. حاول أن يعقب بأية كلمة ولكنه فشل نتيجة لاختناق أنفاسه .

قال ميلاد بجدية :

ـ عقوق الأبناء أصبح سمة هذا العصر.. أنا أعرف أم لديها ابن وحيد ينتظر وفاتها بفارغ الصبر لكى يتمكن من الزواج فى الشقة .

لاحقه حسن قائلاً بثقة :

ـ ألا تقرأوا صفحات الحوادث .. الحفيد الذى يقتل جدته من أجل بضعة جنيهات .. والابن الذى يضرب أباه الكهل لأنه لا يعطيه ثمن المخدرات .. و..

قاطعه إسماعيل معللاً :

ـ يا جماعة الفقر والبطالة هما سبب البلاء فى أى دولة تعانى منهما .

حاول حسن أن يعارضه قائلاً:

ـ لا .. المسألة ليست كذلك .. الحقيقة هى ..

ولكنه اضطر للصمت عندما نهره إسماعيل دون قصد قائلاً:

ـ هذه أمور شائكة تفوق مستوى ثقافتك يا حسن .

شعر بالخجل والغيظ من كلمات صديقه . وأراد أن يرد إليه الإهانة فقال بلا تردد :

ـ أتعرفون السبب الرئيسى فى أزمة المرور.. هو تحويل الجراجات إلى بوتيكات وسوبر ماركات .. و.. أماكن للدروس الخصوصية التى تستغل الطلبة وآباءهم .

أطلق ميلاد ضحكة مقهقهة تعبيراً عن فهمه لمقصد حسن ومداعبته لإسماعيل ثم تمتم كأنه يحدث نفسه :

ـ حقاً .. ماذا حدث لدنيانا .. نحن زماننا لم يكن هكذا .

انفرجت شهية صابر للتفلسف من جديد وعاد يقول :

ـ الإيمان هو حصن الأمان .. وعندما يبتعد الناس عن شرائع الأديان السماوية يتحول البشر وكأنهم وحوش يأكلون بعضهم البعض ..

أنا أتذكر فى الماضى أن ..

ولكن ميلاد يقاطعه، وكأنه يقطع عليه طريق الثرثرة التى إذا ما بدأها فلن ينتهى منها قبل ساعات طويلة .. وقال بحسم وهدوء :

ـ نحن جميعاً مذنبون .. آباء وأبناء . والأمر أصبح واقعاً يصعب تغييره الآن .. ربنا يستر على أحفادنا .

قرر لمعى أن ينسحب بعد شعوره بالضيق، من كثرة التلميحات الغير متعمدة، ولكنه كان يستشعرها فى أعماقه كالحريق .

وما كاد ينهض مستأذناً حتى سقط فجأة على الأرض وهو يردد صارخاً :

ـ صدرى .. صدرى . أشعر بالاختناق .

انتاب الذعر الجميع وهم يلتفون حوله بلا حيلة. بينما انكفأ إبراهيم نحوه فى محاولة مبدئية لإسعافه ببعض الإجراءات المتعارف عليها .. ثم قال بحزم :

ـ اتصلوا بالإسعاف .. أو انقلوه إلى سيارتى لأذهب به إلى المستشفى .

وبنبرة متهالكة تماماً حاول لمعى أن يقول :

ـ أعيدونى إلى المنزل .

تحول الجميع بنظرهم فى اتجاه صابر وكأنهم يتساءلون .

إلى أى منزل يقصد !!



استيقظ مارد الغضب .

أطلق صرخة الشر فى وجه الطبيعة، واستنفر البراكين فى الصدور لتطلق ألسنة لهيب الغل والكراهية على كل من حولها .

تحوّلت النظرات إلى صواعق تخترق كل الأبدان وتحرق الوجدان .

نهى أتمت مهمتها بنجاح !!

استطاعت بجدارة أن تستقطب قلب ومشاعر مصطفى الشيمى الذى استسلم دون مقاومة، وسقط فى مصيدة الحب والعشق التى سخرت فيهما نهى كل مقومات الأغراء وقدمت له الطعم بسخاء ودهاء .. ابتعله هو تحت تأثير فارق العمر ونضارة الشباب .

أحكمت سيطرتها عليه بمخالب البراءة والطهر، ووجهت أحاسيسه إلى بواطن أنوثتها التى اختزنتها لتلك اللحظة. وبعد أن تأكدت من كل بنود ذلك التعاقد الشيطانى من خلال تعدد لقاءاتها السرية معه، عادت لتكشف للجميع عن رغبتها .

وقفت زينب أمام ابنتها تبحث عن معنى يفوق الذهول فى عقلها وأعماقها. وأسكتت المفاجأة كل نبضات الأمل فى كيان ناجى الذى انتابه إحساس بالحسرة والذعر على أحلامه التى ضاعت .

قالت زينب من خلال حلقها الجاف :

- إنتى تمزحين يا نهى .. أليس كذلك ؟!

أجابتها بثقه وفتور :

- أترين فى حديثى أى مزاح يا أمى .

- إذن أنتِ جادة فيما تقولين .

قالت بجرأة :

- نعم .

كادت شرايين عنقها أن تنفجر وهى تصرخ قائلة :

- أنتِ مجنونة .. كيف سمحت لهذا الخاطر اللعين أن يراود تفكيرك .. ألا تدرى من تكونى أنتِ .. وكم عمرك .. وكيف تتخيلى أن..

قاطعتها بتبجح :

ـ المشاعر لا تعترف بفارق الأعمار.. ثم هذه رغبتى .. و.. أيضا رغبته وكلانا يبادل الآخر نفس المشاعر الصادقة .

تقدمت نحوها بخطوة، وكأنها تتأهب لصفعها .. ثم قالت وهى على حالتها :

ـ أترتبطين برجل فى سن أبيك .. ثم ألا تعلمين أنه كان ..

ولكنها توقفها مرة ثانية وقالت بتحدٍّ :

ـ لا تخبرينى بما كان بينكما فى الماضى .. فالحقيقة غير التى ذكرتِها لنا تماماً .. مصطفى لم يرغبك يوماً، ولم يسعَ إليك وكل ما فى خيالك هو مجرد أوهام بعيدة عن الواقع .

لم تستطع التحكم فى انفلات أعصابها، وهجمت عليها فى محاولة للنيل منها . ولكن ناجى كان أسرع من تحقيق رغبتها وحال دونهما وهو يردد قائلاً بنبرة متخاذلة:

ـ لا تؤخذ الأمور هكذا .. دعينا يا أمى نعرف الحقيقة أولا .

تراجعت مرة أخرى وقالت بحدة :

ـ أتغدرين بأمك يا نهى ؟!

ـ أنا لا أغدر بأحد .. وتلك حياتى الخاصة ومن حقى أن أقرر مصيرها وللعلم ذلك هو قرارى النهائى .

التفت نحوها ناجى وقال :

ـ أتقايضين بنا مقابل تلك النزوة .. أو مقابل حلم الثراء !!

أجابت بسخرية جارحة :

ـ لا تتحدثا عن المقايضة .. لقد سبق لنا أن نفذناها دون غضب أو ثورة كما يحدث منكما الآن .

أدركت زينب ما تعنيه ابنتها، وما كان من موقفهم تجاه لمعى .

ازدردت ريقها وكأنها تبتلع حنقها، وقالت بهدوء زائف :

ـ ما فعلته كان من أجلكما .. ومن أجل تأمين مستقبلكما .

أسرعت قائلة بحزم :

ـ وها أنا أؤمِن مستقبلى كما ترغبين يا أمى .

وبلا وعى فاجأها ناجى معقباً :

ـ ولكن ليس على حسابى .. أقصد على حسابنا .

رمقته بنظرة باردة .. ثم قالت :

ـ لا تخشى على مصالحك .. فنحن شركاء على كل حال .

و .. تركتهما منصرفة إلى غرفتها دون مقدمات .

ولاحقتها زينب بصياحها محذرة :

ـ لن يحدث هذا أبداً .. حتى ولو اضطررت لقتلك وقتله أيضاً.

مضت لحظات صمت ثقيلة .. لا صوت ولا صدى .. لا شيء غير تبادل النظرات بين ناجي وبينها وكأنهما يبحثان فى أعماقهما عن إجابة لسؤالها المشترك .

ماذا نفعل مع هذه المجنونة المتمردة ؟!!

انسحب ناجي من أمامها، واندلف إلى غرفته وهو غارق فى تشتت أفكاره .. لا يعرف كيف يتصرف، ومن أين يبدأ .

طفرت إلى مخيلته فجأة صورة والده .. انتابه إحساس بالتضاؤل وهو يهمس إلى نفسه متساءلاً :

.. يا ترى أين أنت الآن ؟!

فرق كبير ما بين واقع لمعى فى ذلك التوقيت وبين ما يحدث فى حياة أسرته .

وكأن أوجاع صدره التى هاجمته، قد استنفرت كل المشاعر الجميلة التى كانت كامنة فى أعماق من حوله .

خاصة صفية التى وهبت اهتماماتها وأوقاتها ومسئولياتها لصالح خدمته فقط . لم تتركه للحظة واحدة، ظلت

على مقعدها بجوار فراشه تتولى رعايته حسب تعليمات الطبيب، وتباشر تطورات حالته بكل ما تحمل المسئولية من معان .. قاومت رغبة سارة فى أن يتناوبا السهر عليه، وأصرت على بقائها بجواره لتطعمه بنفسها، وأصبحت هى همزة الوصل بينه وبين طبيبه المعالج .. وكذلك توضيح حالته الصحية لكل من يسأل عنه من أصدقاؤه .

أسبوعين كاملين أمضتهما بجواره، بلا كلل أو تذمر وتعمدت أن تخفى إرهاقها حتى عن ابنتها التى تولّت هى الأخرى واجباتها نحوه فى مهام مختلفة كأصدق ما يكون ما بين الابنة البارة التى تحب أباها حباً يفوق الحدود .

وكأن القدر قد منح صفية الفرصة لكى تعرف عنه ما لم تكن تعرفه من قبل والتى لم تحاول قط أن تعرفه .

بينما لم يتردد هو فى أن يبوح لها بكل تفاصيل حياته، ومأساته مع غدر زوجته، وصدمته فى أبنائه التى جعلته يجتر الحسرة والألم والندم طوال الفترة الماضية التى حاول فيها أن يخفى آلامه عن الآخرين حتى أسقطه الوجع وهزمه الحزن .

ولأول مرة تجد صفيه نفسها غير قادرة على الالتزام بالحياد .. وقالت بجرأة :

ـ مثل هذه الزوجة .. لا تستحق شرف الارتباط برجل مثلك .

ابتسم بصفاء وهو يعقب قائلاً :

ـ حتى انفعالك يبدو فى صورة ملائكية .

انتبهت لتهورها، وكأنها ارتكبت ذنبًا لا يغتفر، وشردت بنظرها بعيداً عن عينيه بعد أن اعتراها الخجل الشديد .. وقالت هامسة :

ـ أنا أسفة .. لم أقصد أن ..

فاجأها قائلاً وهو يحاول الاعتدال فوق فراشه :

ـ أنا الذى يجب أن يعتذر إليك .. لأننى سببت لك بعض الضيق .. فمثلك لا يعرف من الدنيا سوى السماحة والعطف والوفاء .

صمتت وهى تتأمله بحنو.. فعاد مسترسلاً :

ـ لقد كنت مثلك يا صفية هانم .. لم أكن أتصور أننى سوف أعيش تلك اللحظة التى التهمت بقسوة كل المعانى الجميلة فى حياتى .. لا زلت حتى الآن لا أستوعب ما حدث لى .. عشت عمرى أرعى أطفالى وأرويهما برحيق أبوتى من حب وعطف وحنان، وأتابع سنين عمرهما وهما

ينموان أمام عينى، كما يتابع المزارع محصوله بعد أن حرث أرضه وسقاها بعرقه قبل الماء لكى ينعم بحصاده بعد ذلك .. ولكن ..

سكت للحظة حاول فيها أن يتصدى لأغروروق مقلتيه .. ثم أردف بنبرة متهالكة :

ـ للأسف كان الحصاد مراً وعلقماً .. أنبتت الأرض ديداناً متوحشة أتت على كل زراعتى .. قدمت الحب فحصدت الخسة والعقوق .. تطوعت بحنانى فجنيت الغدر والخداع، أحطهم برعايتى واكتشفت أننى كنت أحتضن الهواء والسراب .. ما كنت إلا غريباً وسط الغرباء .

وبلا أن تدرى وجدت نفسها تربت على كتفه برفق لتخفف من معاناته ..

وقالت بتأثر لم تستطع أن تخفيه :

ـ لا تحزن يا لمعى بك .. فنحن لا نملك غير الطاعة لأقدارنا .

أجاب مسرعاً :

ـ لا .. هذا ظلم للأقدار. إنما هى حالة من اللاوعى واستسلامنا لغشاوة الزيف .. وسوء الاختيار والتحايل على الواقع .

ـ هل يمكن أن يكون واقعنا بهذا السوء .. ونحن فى غفلة عنه؟!

وكأنه تدارك ما تبطنه فى أعماقها .. فسارع قائلاً :

ـ لا بالطبع .. والدليل على ذلك وجود أمثالك فى حياتنا .. و.. ويكفينى أن الله عوضنى بابنتى سارة .. و..

توقف برهة عن الكلام، ثم استطرد بنبرة هادئة :

ـ اعذرينى إذا ما كنت سمحت لنفسى أن أعتبرها ابنتى .. فأنا أشعر بالفعل أنها كذلك .

لاحقته قائلة بصدق :

ـ لو تعلم ما هو قدر أحاسيسها تجاهك ما كنت ذكرت هذه الكلمات .. سارة حُرِمَت من والدها وهى طفلة لا تدرك شيئاً .. ووجدت عندَك معنى الأبوة التى افتقدتها طوال سنوات عمرها ..

وأنت فى الحقيقة تمثل بالنسبة لها الأب والأمان .. و..

قاطعها بلطف، وقال وكأنه تذكر شيئاً فجأة :

ـ أرجوكِ يا صفية هانم .. لا تخبريها شيئاً عن حياتى الماضية .. لكى لا تتشوه صورتى أمامها، وأيضاً حتى لا تتلوث

المعانى الجميلة التى فى ذهنها عن العلاقات الإنسانية بين الناس بعضهم لبعض .

وقبل أن تعقب على كلامه، اضطرت للصمت عندما فاجأتها سارة وهى تدخل مهللة .. وقالت بسعادة :

ـ كيف حال بابا لمعى اليوم ؟!

انفرجت أساريره بفرحة حقيقية .. وقال بحنان :

ـ كيف حالك أنتِ يا غالية .. فأنا لم أرك منذ الصباح .

اتسعت ابتسامتها البريئة وقالت :

ـ يوجد زائر لك بالباب .. سوف تسعد جداً بلقائه .

أجاب بلا تردد :

ـ لابد وأنه صابر .. أدخليه من فضلك يا حبيبتى .

قالت وهى تستدير لتستدعى الزائر :

ـ لا .. لقد أخطأت فى ظنك هذه المرة .

وغابت ثوانٍ قليلة، ثم عادت برفقة الزائر .. وكأنها أتت دون أن تدرى بشبحٍ الموت لكى يغتال روحه .. شعر وكأن القمر قد انفجر فجأة وأحال الكون كله إلى ظلام دامس وكئيب ..

وبدأت الدماء تفور داخل جسده العليل كفوران البراكين الحارقة، واهتزت نبضات قلبه كالزلزال العنيف، وسرت قشعريرة الغضب فى كل كيانه .

وجد نفسه فى مواجهة ولده ناجى .

استشعرت صفية خطورة ذلك اللقاء .. فتوجهت هامسة إلى سارة قائلة بهدوء وحذر:

ـ لنتركهما يا سارة .. فمن المؤكد أن بينهما حديثاً لا يجب أن ننصت إليه .

و.. انصرفا بعد أن رحبت بالشاب .

لحظات من الصمت المثير مضت بينهما .. ولمعى يدقق فى ملامح ولده باستياء واضح ثم بادره متسائلاً بغضب مكتوم :

ـ كيف عرفت بمكانى ؟!

أجابه وهو لا يزال واقفاً:

ـ سألت عنك فى العمل .. وأبلغونى بعنوانك الجديد .

وبحزم صريح .. سأله :

ـ ماذا تريد ؟!

قال بتلعثم :

ـ توجد مصيبة فى منزلنا .. ولا نعرف كيف نتصرف معها .

لم يعلق .. واضطر ناجى أن يزيده إيضاحاً .. قائلاً :

ـ نهى تريد الزواج من مصطفى الشيمى .

تساءل بحذر ودهشة :

ـ مصطفى الشيمى .. ابن خال والدتك ؟!!

ـ نعم هو.

ـ وما علاقتها به .. وكيف تم الاتصال بينهما ؟

تململ فى وقفته برهة .. ثم فاجأه قائلاً :

ـ هى تبحث عن الثراء السريع .

ـ وأين كنتما أنت ووالدتك .. ألم تلاحظا تلك العلاقة من قبل .. و..

انتظر لحظات صمت مع فكره .. ثم عاد يقول متشككاً :

ـ يوجد أمر غامض فى روايتك .. فإما أن تخبرنى به .. أو ابحث عن مكان آخر تستهلك فيه وقت فراغك .

شعر ناجى أن لا مجال للمراوغة أو المناورة، وبأن الوقت

لـن يـسعفه .. ولهـذا اضـطر أن يخـبره بالحقيقـة كاملـة بكـل تفاصيلها .

و.. بفتور غير مناسب لفداحة الموقف .. قال لمعى :

ـ الآن فقط عرفت الإجابة عن سؤالى الحائر.. كم عانيت طويلاً لأجد مبررًا واحدًا لطلب والدتك للانفصال .. و..

سكت برهة .. ثم أردف بنبرة مختنقة :

ـ وأيضاً أصبح واضحاً بالنسبة لى المبرر لموقفك أنت وأختك.

أجاب ناجى ببلادة وبلا مبالاة :

ـ ماذا نفعل الآن ؟!

قال بلا تردد :

ـ اذهب لوالدك الجديد، واطلب منه المشورة .. عساه يرضى عنك ويرضيك بجزء من ثروته .. أما أنا فماذا تنتظرون منى بعد أن أنهيتوا دورى معكم !!

اهتـزت قدميـه مـن شـدة الارتبـاك .. وظـل صـامتاً لعـدة لحظات قبل أن يقول بانكسار :

ـ أمى فى حالة عصبية يرثى لها .. وعلى كل حال سأحاول مع نهى مرة ثانية .

ارتخت ابتسامة ساخرة فوق شفتيه وهو يعلق قائلاً :

ـ بالتأكيد مصالحكم هى التى ستحدد اتجاهاتكم .

وما كاد ناجى يتأهب للانصراف، حتى استوقفته سارة عند دخولها وهى تحمل كوبًا من عصير الليمون وقالت بلطف:

ـ آسفة تأخرت عليك .

وقبل أن يتفوه ناجى بحرف واحد، أسرع لمعى موجهاً كلماته إليها قائلاً :

ـ ناجى مرتبط بموعد هام، وأعتقد أن ليس لديه وقت للانتظار.. من فضلك رافقيه إلى الباب .

وضعت الكوب على المائدة القريبة منها وقد اعتراها إحساس بالدهشة .

ورددت هامسة :

ـ يبدو أننى دخلت فى وقت غير مناسب .

أجابها لمعى بصدق وحنان :

ـ أنتِ لم تخرجى لكى تدخلى يا سارة .. لأنك فى قلبى يا غالية دائماً .

تلألأت ابتسامتها وقالت وهى تلتفت نحو ناجى :

ـ لا أخفى عليك .. فأنا أحسدك على هذا الأب الجميل .

وانصرفا من أمامه .

انصرفا دون أن يدريان بأنه قد جاهد كثيراً لكى يخفى عنهما ما يجيش فى أعماقه من حزن وألم، وما يعاينه من اختناق صدره الذى شعر به وكأن رئتيه تتمزق بمخالب الإحباط والندم .

وما أن فوجئ بظهور صفية أمامه حتى استطلع ملامحها بنظرته الملتاعة، وكأنه طفل صغير قد تعرض للاختطاف، ثم أعادوه لأمه من جديد .

بدا صمتهما أبلغ من كل حوارات البشر.. سكون يختزن فى باطنه تساؤلات مثيرة، ولهفة مستترة مشحونة بالقلق والتوتر.

بادرها بحسرة قائلاً :

ـ تصورى يا صفية هانم .. ابنى لم يلحظ رقدتى هكذا فوق الفراش ..لقد رأيته وهو يستطلع الأدوية التى بجوارى وكأنه يتأمل باقة زهور..أرأيت كيف !!!...

ولكنها استوقفته عن الاسترسال، وقالت بنبرة عطوفة :

ـ لا تظلمه .. لقد لاحظت عليه التوتر والارتباك .. وربما لهذا السبب غفل أن يسألك عن صحتك .

أغلق جفنيه لكى يخفى قطرة دمع هاربة من مقلتيه .. وقال بهدوء :

ـ أشعر بالإرهاق وأريد أن أخلد للنوم قليلاً .

تقدمت نحوه بعدة خطوات، وهى تضع قناع البهجة فوق وجهها .. وقالت مداعبة :

ـ ليس قبل أن يأخذ صغيرى الدواء .

تناوله منها وهو مستسلم تماماً وقد احتوت نظراته إليها العديد من رسائل الشكر والعرفان .

ودعته بابتسامة هادئة قبل أن تغلق الباب خلفها، دون أن تنبث بكلمة واحدة .. وكأنها اكتفت برسالته الصامتة .

وما أن انفرد بنفسه، حتى انفرجت شفتيه بتلقائية وبكلمات مسموعة النبرة فى حديث مع الذات مناجياً:

.. يا إلهى أنقذ ابنتى .. بعد أن اغتيلت أبوتى .

.. يا إلهى أرشد ابنى وأهديه لطريق الصواب .

.. فأنا لا أملك لهما غير الدعاء حتى ولو كانت قد تمكنت منهما مشاعر الغلظة والجفاء.

.. يارب إذا كان عمرى قد انقضى وهماً .. فأمنحهما عمراً مشرقاً بديلاً عن عمرى .

و.. أغمض عينيه مستسلماً لسلطان النوم .

6

اشتعلت النيران .

لم تتصاعد ألسنتها إلى أعلى، بل استدارت لتغوص فى الأعماق وتنهش فى وجدان الجميع بكل قسوة .

أفرز الحريق رماداً سوداوياً احتوى كل المعانى فى قاموس البشرية ليظهرها فى صور متباينة ومتناقضة .. وشاذة .

توارى المنطق ورفع العصيان لواء التحدى والعناد .. تبدلّت المشاعر من حال إلى حال .. اختلت المعايير واختلطت الألوان، وتحجرت الأحاسيس وشاخت الطموحات .. و.. تهاوت الأمانى .

وكأن ثورة اللهيب تعمدت أن تبتلع الأقنعة الواحدة تلو الأخرى لتكشف فى النهاية عن حقيقة ما كان يحاول الآخرون إخفاؤه .

كانت البداية عند مصطفى الشيمى الذى ما أن أتم زواجه من نهى وأحكم قبضته على كل إرادتها، حتى كشف عن حقيقة نواياه تجاهها هى ووالدتها .

كان يضمر حقداً لتلك الأسرة يفوق احتمال تصورات واقعهم .

تبدلّت مشاعره التى طالما انبهرت نهى بها وتحولّت إلى قيود من الغل أقسى من صلابة الصخر.

بكت بحرقة إلى حد تبخر مدامعها، وصرخت حتى اختنقت حنجرتها، وتذللت حتى طمست كرامتها .. و.. كأنها تتحاور مع اللا وجود .

فمصطفى لم يكن لديه أدنى استعداد للتراجع عن إشباع رغباته الجامحة والمتلاحقة من أجل الفوز بإحساس الانتقام .

انتقم لشبابه الذى تسرب من ليال عمره، وهو ينتظر تلك اللحظة التى يفجِّر فيها كل عذاباته بعد أن هجرته زينب .. انتقم لكبريائه الذى وطأته خطى الغدر، وسحقت هامته أمام الآخرين .

كان يدرك تماماً أن زوجته الشابة لن تستطع الفرار من قبضته، خاصة بعد أن تبرأت منها أسرتها، كما أن طبيعة مكان وموقع المزرعة والعاملين بها الذين لا يأتمرون إلا بأمره، زادت من فرض سيطرته عليها .. قطع عنها كل وسائل الاتصال بعالمها الخارجى، فلا هواتف ولا تحركات، ولا معاشرة زوجية .. لا شيء مطلقاً غير إرضاخها لقبول واقعها الجديد بكل بشاعته .

حالة من الجنون سيطرت على ذاته، وأصبح غير قادر على التصدى لطوفان الشر الذى انفجر بداخله .

أدركت هى استحالة التعامل معه بأى ملمح منطقى، وكان عليها التفكير فى وسيلة أخرى تمكنها من الخلاص والفرار من هذا العذاب .

وحانت فرصتها ذات ليلة، عندما اقتربت منه بخطوات تجرها المذلة والهوان، وسألته باستعطاف وانكسار :

ـ ما ذنبى أنا يا مصطفى .. وإذا ما كنت تعشق أمى إلى هذا الحد فلماذا ارتبطت بى؟!

أجاب بجفاء :

ـ أنا لم أرتبط بك .. أنا فقط حققت لك رغبتك الخبيثة.

ـ إذا افترضنا أنها كانت رغبتى .. لماذا وافقت ؟!

نظر نحوها باحتقار شديد .. ثم قال :

ـ لأنكما صورة واحدة .. أنتِ مثلها تماماً .. وكأنها أرضعتك كل معانِى الغدر والخسة والأنانية .. و..

ارتفعت نبرة صوته وأردف بقرف :

ـ ألا تخجلين من نفسك؟! .. لقد ساومتى ببنوتك لها،

وبرابطة الأخوة مع توأمك، وتنكرتى لأبيك . كل هذا مقابل شغفك وطمعك ولهفتك على المال .. بلا مبالاة مثلها تماماً .. فهى أيضاً ضحت بكل شيء، بالوعود والعهود من أجل أن تفوز بالرجل الذى خدعتنى معه .

قالت بيأس وفتور:

ـ ولكنى أحببتك بالفعل .. وإن كانت البداية غير ذلك، فأنا الآن لا أستطع البعاد عنك .. حبك أصبح ...

ولكنه يقاطعها بنبرة أكثر برودا قائلاً :

ـ لم يعد قلبى فى حاجة لتلك المشاعر.. حتى ولو كنتِ صادقة .. يكفينى فقط الآن أن أرى صورتها الذليلة أمامى من خلالك .

عادت تتساءل بحذر:

ـ وما ذنبى أنا ؟!

ـ أنتِ قطعة من كيانها .. وتألمك وعذابك حتماً سينال منها .

فوجئ بها تقول بصدق واضح :

ـ لا أحد يشعر بآلام الآخر.

. لمعت مقلتيه، وكأنه يتأملها لأول مرة .. ثم قال :

ـ إجابتك تلك هى التى يمكننى أن أصدقها فعلاً .. لأنها تدل على حقيقة نفسك بكل ما فيها من أنانية ولا مبالاة .. ألَمْ أخبرك بأنك مثل والدتك تماماً ..تحملين خصالها وتفكرين بأسلوبها .

فجأة تحوّلت من حال إلى حال .. كالحرباء التى تتلون وفقاً لموقعها، وأصبح وجهها جليدياً بلا أى تعبير، وتحجرت نظرتها وتقلصت ملامحها بغضب ينذر بالشر .. ثم قالت بهدوء مثير :

ـ ماذا تريد مقابلاً لخلاصى من حياتى معك ؟!

تنفس الصعداء بعد أن وصل إلى غايته .. وأجاب بارتياح وثقة :

ـ تتنازلى عن نصيبك فى ميراث أمك .. بعقد بيع موثق .. و..

أسرعت تقاطعه وقالت بحزم :

ـ موافقة .

ابتسم بسخرية قبل أن يقول :

ـ انتظرى .. فأنا لم أكمل كلامى معك .. ستنفذين ما طلبته منك بشرط استمرار إقامتك معى مدة كافية بعد ذلك، لكى يبدو الأمر طبيعياً .

لاحقته متسائلة :

ـ ثم ماذا ؟

استدار موليًا ظهره لها وهو يردد قائلاً :

ـ سأطلقك .. لتعودى من حيث أتيتِ، ومعك غنيمة ذكرياتك لأحلى وأجمل أيام عشتيها معى .

تابعته بنظرها وهى تضغط على نواجزها غيظاً وحقداً، وقد راودها أمل باهت بأن تهدأ النار قليلاً فى صدرها .

ولكن .. النيران لم تهدأ، حيث امتدت بأجنحتها الهلامية لتنال من أعماق والدتها زينب. فقد ازدادت اشتعالاً وقسوة وهى تلتهم كل بقايا مشاعر الإنسانية فى كيانها وأيضاً بعد أن تفحم وجدانها تماماً .

كانت تتحرك داخل منزلها من غرفة إلى أخرى كالنمرة الشرسة التى أصابها جُرح عميق وهى غير قادرة على وقف نزيف دمائه .. نزيف اختلطت قطراته وامتزجت بلزوجة الشر واليأس والكراهية والرغبة فى الانتقام .

الانتقام من كل شيء .

الإحساس بالوحدة كان أشد قسوة عليها من تخلى النوم عن عينيها، فالأرق كان يرهقها بينما شعورها بالإحباط كان يمزقها .

شعرت وكأن الزمن ينافسها فى طبع الغدر، بل ويفوق قدراتها على التحول المفاجئ إلى المراوغة والخبث .

كيف استطاعت الدنيا أن ترتدى قناع الأمان، وتلألأ لياليها بشعاع الأمانى والأحلام الوردية. وهى فى حقيقة الأمر تخفى عنها جدائل الخداع التى ما لبثت أن التفت حول كيانها، وراحت تعتصره بقوة وقسوة لعلّها تستفيق من أنانيتها وتمردها على واقعها .

وكأن الواقع قد ثأر لنفسه منها، بعد أن بادرت بمعول الهدم تحطم جدران كيانها الأسرى .

بدأت بزوجها بكامل إرادتها، وانتهت بابنتها رغماً عنها .

أما ناجى فقد أصابه هو أيضاً من ثورة الحريق نصيب كبير، ولكن بمذاق آخر ولوعة مختلفة .

لوعة الحب !!

حيث اشتعل لهيب الشوق فى قلبه، وتوالت لسعات الحيرة فى عقله ووجدانه . بعد أن حاول نصب شباك اللا مبالاة وافتراس براءة سارة، فوجد نفسه طريح مصيدة الحب دون تخطيط من فريسته .

فمنذ لقائه الأول بها استطاع بدهاء أن يمسك بتلابيب

خيالها النقى بعد أن طاردها فى كل مكان وبكل الوسائل .. وهى فى طريقها إلى العمل أو أثناء عودتها .

وتكررت اللقاءات بينهما

اكتشف أن البراءة يمكنها أن تخضع سطوة الشر، وتسخر طاقاته نحو منافذ أخرى، قد تعاونه على تغير مضمونه، وتخلق منه صورة جديدة تستطع التعايش وسط الآخرين .

أدرك أيضاً أن للتسامح قدرات تفوق كثيراً ما يمكن أن تفرزه الصراعات، فبعد أن استطاع إيجاد تبرير منطقى لإقناعها بضرورة سرية العلاقة بينهما، متعللاً بأن والده قد يظن أنه يستثمر تلك العلاقة لصالح والدته ونقل أخباره عندها .

فى البداية هى استجابت لرغبته تحت تأثير مشاعرها النقية، ولكنها لم تستطع الالتزام طويلاً بهذا الاتفاق .

وفوجئ بها تبادره متسائلة :

ـ ألم يحن الوقت بعد لكى تخبرنى بحقيقة هدفك من علاقتنا؟

تردد برهفة قبل أن يقول :

ـ حبى الصادق لك هو الدليل على حُسن نواياى .

قالت باقتناع :

ـ الحب الحقيقى لا ينبض فى الظلام .. فأى إحساس يحاول صاحبه أن يخفيه خجلاً أو خوفاً من الآخرين، فذلك برهان على أنه إحساس لقيط بلا هوية .

حاول أن يبدو مندهشاً وهو يقول :

ـ كيف تصفين إحساسنا بأنه لقيط .. فأنا أحببتك منذ أول لقاء بيننا .

همست بدلال :

ـ تحدث عن إحساسك فقط .. أما بالنسبة لى فلن أستطع الاعتراف به إلا تحت مظلة رضاء أمى وبابا لمعى .

ابتسم ساخراً قبل أن يردد قائلاً :

ـ بابا لمعى !! تقصدين والدى .

ـ نعم والدك .. وهو بالنسبة لى قدوتى ونبع الحنان وعطف الأبوة .

تساءل بحذر :

ـ هل تطالبينى أن أخبره بعلاقتنا ؟

أجابت بحزم :

ـ ليتك تفعل .. قبل أن أفعل أنا .

وبنبرة مستكينة قال :

ـ أهو شرط لاستمرار لقاءاتنا ؟

قالت بجدية :

ـ هذا هو قرارى .

عاد يراوغها بخبث :

ـ أفهم أنكِ لا تبادلينى نفس المشاعر.

تمتمت بهدوء :

ـ سأحتفظ بهذا لنفسى .. على الأقل لحين أن أتبين موقفك .

اهتزت أهداب جفونه قبل أن يقول بارتباك :

ـ كل ما أرجوه منك أن تعلمى جيداً أننى أحببتك بصدق .

ترقرقت ابتسامة هادئة فوق شفتيها وقالت قبل أن تودعه منصرفة :

ـ لنترك القدر يقول كلمته .

كان حائراً أكثر منه مندهشاً، ومنبهراً أكثر من إعجابه بها .

فهو لم يعتد على التعامل مع تلك النماذج فى حياته، وكأنه فوجئ بأن هناك من يزل يؤمن بالتقاليد والمبادئ والقيم النبيلة .

تساؤلات كثيرة وملتهبة كانت تموج فى أعماقه ووجدانه وتتصادم بعنف مع أفكاره وقناعاته .

ولكنه الحب .!

الحب الذى يغرد بعيداً عن نعيق الحقد والأنانية .. الحب الذى يستمد قوته من نبض الطهر والانتماء، والذى ينضج تحت صفاء السماء ودفء الشمس وضياء القمر، والذى لا يتستر ولا يتمحوّر ولا يراوغ .

ولأنها إرادة الحب .. فقد اتخذ قراره بالذهاب إلى والده .

فى البداية استقبل لمعى ذلك اللقاء بتوجس شديد، حيث توقع كارثة أخرى جاء يحملها له ولده، الذى انقطع عن زيارته منذ المقابلة الأولى .

ومما زاد الأمر إثارة هو تواجد صفية التى رفض لمعى بإصرار محاولتها فى مغادرة المكان . كما أن ناجى لم يجد حرجاً أو ممانع لوجودها، حرصاً منه لإتمام مهمته التى جاء من أجلها.

لم يستغرق منه الوقت غير دقائق قليلة عبَّر فيها عن مشاعره تجاه سارة وبرغبته الصادقة فى اختيارها كزوجة له .

كان لمعى يتأمل ملامح ابنه أثناء حديثه، وكأنه يبحث عن مدى صدق مشاعره ومبرراته .

وبعد لحظات صمت مقلقة، توجَّه لمعى بالحديث إليه معقباً بهدوء :

ـ أنت ابنى .. وهى كابنتى تماماً .

بدت علامات الارتياح على وجه ناجى، واطمئن لتلك البداية المشجعة .

ثم همس قائلاً :

ـ لهذا السبب لم أتردد لحظة فى المجيء إلى هنا .

ابتسم لمعى باتزان والتفت نحو صفية كأنه يحاول قراءة تأثير كلمات ولده عليها .. ثم عاد وبادره قائلاً :

ـ بالفعل أنا أتمنى لسارة أن ترتبط بشاب طيب الأصل ودمث الخلق .. يصون كرامتها ويحمى عرضه، ويتحصن بمبادئه ويقدس انتماؤه .. شاب لا يقايض بشرفه أو مسئولياته من أجل تحقيق طموحاته .. غير انتهازى أو ضعيف الشخصية ... شاب طاهر المشاعر ومتزن العقل والفكر .. نعم .. أتمنى لها شاباً يدرك معنى الكيان الأسرى ولا ينتظر مقابلاً لتضحياته .. و..

بحماس شديد قاطعه ناجى مردداً :

ـ أشكرك يا أبى على ثنائك وتزكيتك لى أمام صفية هانم .

لاحقه قائلاً بهدوء مثير:

ـ ولكن للأسف أغلب تلك الصفات والخصال ليست لديك .. ولهذا فأنا أرفض طلبك .. لأننى بالفعل أخشى على سارة من الارتباط بشاب مثلك .

و.. قبل أن يستعيد ناجى توازنه من هول الصدمة، فوجئ بوالده ينهض مستأذناً بالانصراف واتجه إلى غرفته وأغلق الباب من بعده .. بينما ظل هو صامتاً لعدة لحظات والذهول يطغى كل ملامح وجهه .

وبصعوبة بالغة بدأ يتحرك من مكانه، وكأنه فى حالة ترنح وهو يتخذ طريقه للانصراف غير منصتٍ لمحاولات صفية لكى تستبقيه قليلاً .

وفى طريق عودته إلى المنزل، كان كمن فقد ذاكرته فجأة، أو أصابته صاعقة غضب أسقطتها شُهب السماء عليه .

لا شيء فى خاطره غير صور متلاحقة لوالده أثناء فترة معايشته لهم فى السابق ثم سرعان ما تقفز أمامه صورته التى رآه عليها مؤخراً.

ارتجفت شفتيه فى محاولة منه لكى يردد سؤاله الحائر الذى سيطر على عقله، وهمس إلى ذاته قائلاً :

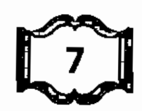
.. أيمكن أن يكون هذا أبى ؟!!

.. إنه رجل آخر وكيان مختلف .

.. من أين أتى بهذه الشخصية الصارمة ؟!

.. أين أنتى يا أمى؟ لعلّى أجد الإجابة على أسئلتى الحائرة، فمن منكما كان يخفى عن الآخر حقيقة شخصيته .. ومن منكما كان الظالم ومن المظلوم .

و.. غاب وسط الزحام دون أن يهتدى لجواب يرضيه .



وقت الغروب .. حيث بدأت الشمس تلملم سواعدها المحتقنه تأهباً للرحيل فى جوف الأفق، وامتزج الغيوم بضاب الرطوبة وراح يشق الفضاء راصداً لمعى ليستقر فى صدره حتى كاد أن يصيبه بالاختناق .

بدا حائراً وعابساً .. لايدرى إن كان قد جانبه الصواب أم لا، عندما اتخذ قرار الرفض مع ولده، بالإضافة لموقف سارة التى لم يطرأ عليها أى تغير أو رد فعل لتصرفه الغريب .

كان قلقه عليها يفوق احتماله، لم يهنأ فى نومه ولم ينج من توتره فى يقظته وعندما نفذ صبره اضطر لأن يسعى إليها .

طرق باب شقتها وما أن ظهرت إليه حتى هللت بترحاب شديد قائلة :

ـ بابا لمعى .. أهلا بك .. و..

اندفعت إلى صدره لتضمه بحنان حقيقى، فأحاطها بزراعيه بعطف وهو يقول معاتباً:

ـ بابا لمعى غاضب من ابنته لأنها لم تزره بالأمس .

حاولت أن تجذبه إلى داخل الشقة، ولكنه امتنع مردداً :

ـ لا ليس هنا .. أنا أريدك بمفردك فى الشقة الثانية .. تعالى معى .

استجابت لرغبته وهى سعيدة بحق.. وما أن جلست أمامه حتى بادرها بنبرة مضطربة قليلاً :

ـ فى الحقيقة يا سارة أنا لا أعرف كيف أبدأ معك الحوار.

بدا وجهها كالبدر المكتمل وهى تجيبه بابتسامة هادئة :

ـ أمى اضطرت أن تشرح لى أسباب رفضك لطلب ناجى .. و..

قاطعها بتوجس :

ـ وأنتى ما رأيك ؟ .. على كل حال القرار قرارك يا ابنتى .. وسامحينى إذا ما كنت تحدثت بلسانك، ويجب أن تعلمى أننى أتألم أكثر منك .. فما من أب فى الدنيا لا يحلم بأن يزوج ابنه بفتاة رائعة مثلك .. ولكن ..

صمت فجأة عندما رآها تنهض من مكانها تبؤده، وقد ارتسمت على ملامحها أسارير الجدية ثم التفتت نحوه قائلة :

ـ لو كان أبى لم يرحل عن دنياى، وتعرض لموقف مثل موقفك

ما كان فعل غير الذى فعلته من أجلى يا بابا .. فأنا إذا كنت تأثرت فذلك بسبب حزنى عليك وأنت تكتم كل هذا العذاب فى صدرك .. و..

تقدمت فى اتجاهه وركعت على ركبتيها أمامه وهى تمسك بكلتا يديه .. ثم أردفتت قائلة بحنان شديد :

ـ أنت عندى أعظم أب فى الوجود، ويكفينى إحساسى بالأمان طالما حضرتك موجود بيننا أنا وأمى .. ولن أغفر لنفسى أبداً لكونى تسببت للحظة فى إيذاء مشاعرك.

كادت شرايين رأسه أن تنفجر، عندما فوجئ بدموعها تنهمر بغزارة، فأسرع يضم رأسها إلى صدره وهو جالس وراح يردد بتأثر بالغ :

ـ لا يا بنتى .. أرجوك لا تبكى أمامى .. فهذا ما لن أستطع احتماله بالفعل .. والمهم عندى إنك مقتنعة بقرارى .

وقفت وهى تمسح بأطراف أصابعها ما تبقى من قطرات الدمع، وسرعان ما تلألأت ابتسامتها الساحرة مرة ثانية وهى تقول متساءلة بدلال :

ـ إذن أنت لست غاضباً منى !

نهض مسرعاً وقال وهو يدفعها برفق أمامه .. ثم قال :

ـ سأغضب إذا مكثتى أكثر من ذلك .. دعينى أذهب للحاج صابر لأن الأستاذ إسماعيل يطلب مقابلتى لأمر هام .. ولعلّه خيراً .

و.. بعد انصرافها شعر وكأن قامته قد ازدادت طولاً، وسرى فى كيانه إحساس بالثقة والقوة وهو فى طريقه إلى متجر صابر.

وكأن الواقع أراد أن يكافئه هو الآخر على نقاء ضميره وحياديته أمام الأحداث حتى ولو كان تأثيرها قد أصابه شخصياً .

فما أن ظهر لمجموعة أصدقائه حتى بادره صابر صائحاً :

ـ نحمد اللّٰه أنك حضرت فى موعدك .. فالأستاذ إسماعيل يرفض الحديث عن مشكلته إلا فى وجودك .

تلاحقت التعليقات من باقى المجموعة ما بين ساخر أو مندهش، وكأنهم يتهامسون على اليوم الذى أصبح فيه الجميع يلتزم الصمت انتظاراً لرأى لمعى الذى عاش حياته مهمشاً عند أقرب الأقربين إليه .

لم يعر لمعى اهتماماً لتعليقاتهم والتفت نحو إسماعيل متسائلاً :

ـ خير يا أستاذ إسماعيل .

أجابه وهو مكتئب :

- ومن أين يأتي الخير، وأنا قد ابتليت بأبناء قد أصابهما العته والبلاهة .

عقب الدكتور إبراهيم مردداً وكأنه يحدث نفسه :

- والله عندك حق يا إسماعيل .. العيال أصبحوا يمثلون مشكلة مزمنة لأهاليهم .. جيل غريب وبلا ملامح .

عاد لمعى مستفسراً :

- ما هي القصة يا جماعة .. أنا لا أعرف شيئاً عن الموضوع الذى تتحدثون عنه ؟!

أجاب إسماعيل منفجراً بغيظه الواضح :

- تصور يا لمعى بك .. ابنى محمود ضابط الشرطة فوجئت به يخبرنى بأنه قد تقدم باستقالته لوزارة الداخلية بدون علمى.

اختلطت الهمسات بينهم ما بين مستنكر أو مؤيدٍ أو متعجب. بينما ظل لمعى صامتاً انتظاراً لكلمات إسمّاعيل الذى استطرد قائلاً :

- الولد عندما سألته عن السبب أخبرنى ببساطة أنه تحصل على وظيفة فى إحدى شركات البترول بمرتب يوازى أربعة أضعاف مرتبه كضابط .

تدخل حسن مؤيداً للفكرة :

ـ والله هو شاب ذكى .. عرف من أين يؤكل الكتف .. الدنيا فرص وأنا أرى أنها فرصة جيدة بالنسبة لابنك .

نظر إليه إسماعيل باستياء .. ثم توجَّه للمعى متساءلاً :

ـ ما رأيك أنت يا لمعى ؟!!

أجاب بهدوء:

ـ ابنك مظلوم يا أستاذ إسماعيل .. فهو مفتقد للقدوة .. لذلك هو أجرى مفاضلة ما بين التزامه المهنى والقانونى، وما بين الواقع المحيط به ..الواقع الذى خضع لسطوة المال الذى تجاوز كل حدود المنطق .

أسرع يقول بحماس :

ـ كيف تقول أنه افتقد للقدوة .. فأنا لم أتهاون فى تنشأته النشأة السليمة، وأنفقت عليه بسخاء .. و..

التفت نحو المجموعة مستطرداً :

ـ هذا الخائب تخلى عن مركزه الأدبى والاجتماعى وعن مكانته الوظيفية ويختار أن يصبح موظفاً عادياً من أجل المال .

قال صابر بجدية :

ـ لا تغضب منى يا أخى إسماعيل ..بصراحة ابنك محمود أظهر أنه غبى جداً .. أيوجد إنسان عاقل يترك السلطة والنفوذ من أجل بضعة جنيهات زيادة .

أجابه مسرعاً :

ـ فعلاً هو غبى .. ولكن ..

والتفت نحو لمعى قائلاً :

ـ ما هى حكاية القدوة تلك .. هو أنا كوالده ألا يكفيه أن أكون قدوه له .

ابتسم لمعى بسخرية قبل أن يقول :

ـ أنت فعلا كنت قدوته .. هو رآك كيف تتعامل مع مهنة التعليم ومكانتك كمعلم وكيف تفرغت لجمع المال من خلال تجارة الدروس الخصوصية .

احتنق وجهه وقال بغضب مكتوم :

ـ أنا لا أتاجر يا أستاذ لمعى .. أنا بأقدم خدمة للطلاب لكى يتمكنوا من مسيرتهم العلمية بتفوق .. وكأنك لا تعلم مشكلة التعليم فى بلدنا وتكدس التلاميذ فى الفصول كيوم الحشر.

وجدها إبراهيم فرصة جيده لإشباع رغبة اعتراضاته المتواصلة .. فقال :

ـ وما الغريب فى هذا ؟ .. إذا كانت حكومتكم نفسها بتتاجر على الشعب .. حكومة رجال الأعمال الذين تفننوا فى نهب مواردنا وخيرات بلدنا .

عقب ميلاد قائلاً :

ـ والمدهش أيضاً أنهم يمثلوننا كنواب تحت قبة البرلمان .. و..

أطلق ضحكة فاترة ثم أردف :

ـ يعنى المسألة فى بيتها يا سيدى !! المهم ربنا يقوى منتخبنا الكروى هذه المرة بدل من صفر المونديال الشهير.

كانت حالة صابر المزاجية ليست كعادته السابقة، حيث انتابه الشرود أكثر من مرة وهو وسطهم مما استرعى انتباه صديقه حسن الذى سأله مباشرة :

ـ ماذا بك يا عم صابر؟ .. أين قفشاتك ونوادرك الفلسفية؟ ..و..

تدخل لمعى فى الحديث معقباً :

ـ بالفعل أراك اليوم على غير طبيعتك يا صابر.

عاد حسن يقول مردداً وهو يضحك مقهقهاً :

ـ أنت وقعت فى الحب، ولا الهوى رماك .

انتبه صابر من حالة شروده، وقال باندهاش :

ـ يا أخى الأولاد عندى فى البيت بيتكلموا فى موضوع مع أصحابهم غريب بعض الشيء .. حتى ابنى الذى كان بيساعدنى فى المحل لم يعد مواظباً على الحضور، وكل مرة يخترع لى حجة جديدة .

تساءل الدكتور إبراهيم باهتمام :

ـ عن أى موضوع الذى تتحدث عنه يا صابر ؟!

التفت إليه وأجابه بنبرة مستهجنة :

ـ يا سيدى ناويين يتجمعوا فى ميدان التحرير يوم 25 يناير القادم هم وكل أصدقائهم .. ولا أجد مبرراً لذلك .

عقَّب ميلاد بسخرية :

ـ يمكن واحد من مطربيهم الخنافس يقيم حفلة هناك .

قال صابر بجدية :

ـ معقولة يوجد مطرب يعمل حفلة فى الشارع !!

اشترك إسماعيل فى الحوار بعد أن تناسى موضوعه الخاص .. وقال :

ـ مطربين هذه الأيام يقيمون حفلاتهم على البلاج أو حتى فى الاستاد فلماذا الدهشة إذا أقام أحدهم حفلته فى الطريق العام .

همس صابر بغير اقتناع :

ـ جائز.. كل شيء أصبح ممكناً اليوم!!

و.. قبل أن يتداخل أحدهم فى الحوار معه فاجأهم برغبته فى الانصراف بلا مقدمات.

لم تكن لديه الرغبة فى العودة إلى منزله، أراد أن يسير فى الطرقات المختلفة مستطلعاً وجوه الآخرين، وكأنه يبحث عن إجابات لأسئلته الكثيرة التى كانت تتلاحق فى خاطره .

ماذا حدث للمجتمع الذى يعيش فيه بينهم ؟!

لقد ظن فى البداية أنه الوحيد الذى يعانى من مساوئ واقعه، ولكنه اكتشف أن الآخرين يتعايشون مع واقع أكثر سوءاً.

كارثة اجتماعية تفشت فى شكل ظاهرة لامست وجدان الجميع .. البعض كان يتستر عليها مضطراً، وآخرون كانوا يلذون بالصبر والاحتمال، وغيرهم يخادعون أنفسهم ويدفنون رؤوسهم فى الرمال كالنعام الخائفة .. جميعهم يبررون إما بجهالة أو

بسذاجة أو يأس تحت ستار دعوة التطور والتمدن والعولمة .. ولا أحد يدرى ماذا حدث !!

المعانى اختلطت وتباينت، وتوارت مفاهيم وموروثات، وتهاوت مبادئ وتقاليد .. اختلت الأعراف والدساتير الإنسانية فلا انتماء ولا روابط أسرية ولا علاقات اجتماعية ولا قدوة أيضاً.. لا منطق ولا منظومة محددة المعالم وكأن كل من حوله أصبح كيانات هلامية ليس لها مسار أو اتجاه .

كما لو كانت الشمس تشرق وتغرب على العدم، لا جديد فى أحداث الليالى والعمر يمض وينقضى بلا ذكريات .. أو تاريخ.

، توقف للحظات وهو يتلفت يميناً ويساراً متأملاً الشفاه المكتئبة والنظرات المتحفزة والتنافر المزعج بين بعضهم البعض .

هاجمته صورة زينب بكل غطرستها معه، وحاول مرغماً أن يلتمس لأبنائه بعض العذر ولكنه فشل .. فلقد كان جرحه أقوى من تسامحه .

لم يكن يدرى أن زوجته قد فقدت السيطرة على مشاعرها، وعلى الاحتكام للمنطق فى تصرفاتها خاصة بعد أن عادت إليها نهى وهى خالية الوفاض حتى من كل شيء، لا إرث ولا طموح ولا نضرة الشباب .. لاتحمل معها سوى خيبة الأمل وقسيمة طلاقها .. و.. بقايا كيان مدمر نفسياً.

قضت ليلتها فى حديث مع الشيطان وهو يراود عقلها وتراوغ هى وجدانها .. وكالمسحورة اتخذت قرارها الذى لا يحمل سوى معان البغض والحقد واللامبالاة تجاه أية شرائع سماوية أو قوانين وضعية .

لا شيء يهم أمام تحقيق رغباتها الجامحة، واستسلمت لفحيح الشر الذى استقر فى أذنيها بعد أن استهواها ذلك الطنين.

وجها لوجه أمام مصطفى الشيمى .

المفاجأه اختذلت الخمسة والعشرين عاماً فى لحظة واحدة.

كلاهما وقف صامتاً مذهولاً وهو يتأمل الآخر.. لحظات ترقب فجرت فيهما مشاعر متناقضة ما بين الخوف واللهفة وبين الحذر والاشتياق وكانت هى أكثر منه ثباتاً وقدرة على إخفاء حقيقة ما تضمره عندما بادرته قائلة :

ـ أنت كما أنت .. لم يطرأ عليك أى تغيير.. هى نفس صورتك التى كنت عليها منذ آخر لقاء بيننا .. وكأنها خمس وعشرون ثانية لا سنة .

ابتلع ريقه بصعوبة، وهمس وكأنه لا يجد ما يقوله :

ـ زينب !!

أسرعت قائلة وهى تحاصره بنظرات العتاب :

ـ نعم زينب ... زينب التى ضحت بكل شيء فى الدنيا من أجلك وجاءت إليك طواعية ومشتاقة قبل أن تكون نادمة .

ـ أنا لا أصدق ما أراه .. وكأنى فى حلم من أحلام اليقظة !!

قالت بنعومة يصعب مقاومتها :

ـ حقاً هو حلم .. ولكنه الحلم الذى تعايشت معه طوال السنوات الماضية انتظاراً لتلك اللحظة التى أراك فيها مجدداً .

تلفت حوله وكأنه يبحث عن أى منقذ ينقذه من ذلك الموقف المثير .. ثم أسقط نظرته إلى الأرض قبل أن يقول بارتباك واضح :

ـ سنين طويلة والعذاب لم يرحم كيانى لحظة واحدة .. وجرح قلبى لم يتوقف عن نزيف الألم بعد فراقك .

أجابت بشفاه مرتجفة :

ـ عذاب الهجر أرحم كثيراً من عذاب القهر الذى يجبرك على أن تعايش إنسانا لا تحبه .. فأنا دفعت ثمناً غالياً بسبب قرارى الغبى بارتباطى بزوج لا أطيق معاشرته ولا يوجد بينى وبينه أية مشاعر أو قبول .

تساءل بلهفة صادقة :

ـ لماذا إذن أقدمتى على هذا التصرف ؟!

تأملته للحظات وكأنها تتأكد من أنها استطاعت أن تستعيد سيطرتها عليه، ثم أجابت بنبرة ضعيفة :

ـ الغيرة كادت تقتلنى عندما أخبرنى أحدهم بأنك على علاقة بفتاة غيرى .. فقررت الانتقام لكبريائى .. وللأسف دفعت أنا ثمن تهورى .

أسرع يقول ببلاهة مدافعاً عن نفسه :

ـ أقسم لك أننى ما أحببت أحداً فى حياتى سواك .. و..

تبعثرت أحاسيسه وهو يتساءل بانفعال :

ـ من الذى أوحى إليك بهذا .. لابد وأنه كان يدبر الوقيعة بينى وبينك وللأسف قد نجح فى مسعاه .

بدت الكلمات كما لو كانت تزحف فوق شفتيها كالأفعى وهى تقول :

ـ لا داعى لنبش الماضى، المهم أنك معى الآن وأنا معك .. ألا يكفيك هذا .

و .. جاء دور الشيطان الذى استلم زمام قيادتهما ومهد لهما صورة ومعنى الاكتفاء بطريقته، وبرغبتهما .

فكلما ارتويا من بئر الخطايا ازدادا عطشاً ولهفة فى الغوص داخل أعماق الرزيلة، والتحما كثعبانين كلاهما يستنفر السم بين أنيابه فى صورة عاشقين لا يعرف أحدهما من العاشق ومن المعشوق .. بل من القاتل ومن المقتول .



صفحة من صفحات التاريخ المجتمعى، توحدت من أجل تسطيرها كل الظواهر الكونية والملاحم البشرية .

الشمس أشرقت دون تمهيد، والصبح أطل بضيائه فجأة ملتهماً بقايا ظلمة الليل والفجر، الطبيعة ارتدت أبهى ما لديها وافترشت الأرض والسماء وما بينهما من فراغ مناخى .

تحوّلت كل الأبصار نحو اتجاه واحد، وتصنتت الأذن بترقب ولهفة، واحتشدت المشاعر ما بين الطموح والجموح، والدهشة والذهول وما بين الإعجاب والحذر، والخوف والتوحد .

وكأن الأكف قد بدت فى قبضة واحدة أحكمت سيطرتها على المستحيل لتحقق ما هو أشبه بالمعجزة .

استقرت العقول فوق الألسنة وراحت تتساءل عن شواهد مبهمة .

ماذا حدث .. وماذا يمكن أن يحدث ؟!!

اليوم 25 يناير 2011 والمكان ميدان التحرير.

ثورة شبابية ترفع شعار السلمية، استطاعت أن تستقطب جميع الأطياف الشعبية فى كل مراحلها العمرية واتجاهاتها السياسية .

حناجر وطنية تصيح بعفوية .. لا ظلم ولا استبداد ولا أساليب قهرية لا مآرب فردية لا شيء غير تحقيق الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية .

مئات اتبعتها الآلاف ثم الملايين فى صورة جمالية تقترب من المدينة الفاضلة .

كرنفالات متعددة الدوائر جميعها تنشد أنشودة واحدة .

سلمية .. سلمية .

المسلمون فى حراسة الأقباط أثناء الصلوات الخمس، والأقباط فى حماية المسلمين أثناء صلاتهم وترانيمهم الإنجلية .. الأعلام ترفرف فوق الرؤوس، ونصبت الخيام وارتفعت الأنغام الوطنية، وتعالت الهتافات تطالب بالحرية والديمقراطية والعدالة فى كل موقع لتلاحق الفساد السياسى والاجتماعى والاقتصادى والثقافى بكل ألوانه .

ولكن .. ولأن الشر ليس له بصيرة أو ضمير، وبعد أن استفاقت الأنفس المريضة من غيبوبة الدهشة والمفاجأة،

وعادت تلملم شتات أوصالها وسرعان ما أعلنت عن موقفها من خلال لهيب القنابل والطلقات النارية والأسلحة المدمرة فى هجوم تترى وعشوائى على المسالمين المتحضرين دون رحمة أو هوادة فى محاولة يائسة لاستعادة سطوتهم وغطرستهم المترنحة.

وسقط الشهداء .. وتناثرت أشلاء الأبرياء .

وانفطرت القلوب الدامية، وانشطرت الجفون الباكية، وانفجرت الحناجر الغاضبة، وهتفت بإصرار لارجعة فيه :

.. الشعب يريد إسقاط النظام .

و.. سقط النظام .

سقط بإرادة شعبية أذهلت العالم كله، وأصبحت الثورة المصرية مثالاً يحتذى به لدى كل شعوب العالم على كافة مستوياتها، وانفرط عقد الفساد وتهاوت حباته الواحدة تلو الأخرى، وأصاب الهلع مصاصو ثروات الوطن وبدأوا فى محاولات يائسة للتنصل من جرائمهم البشعة وهم يلقون بالمسئولية على بعضهم البعض .

والحقيقة أنهم جميعاً مذنبون ومجرمون وانتهازيون، قد أعماهم الجشع والطمع عن حقيقة لا مناص منها ولا فرار، وهى أن الله يمهل ولا يهمل، وأنهم حتماً سينالوا جزاء ما اقترفت أياديهم الملوثة فى حياتهم وآخرتهم .

وظل التساؤل يتردد فى أذهان الجميع .

ماذا حدث؟ وماذا يمكن أن يحدث ؟!!

وتباينت ردود الأفعال ما بين مصدق وغير مصدق، وبين متفائل وآخر غير ذلك، ومستوعب وغير قادر على الاستيعاب، ومؤيد ومتردد، وواضح وغيره متلون، وما بين صامت وبين متأمل، وشامت أو متسامح .

وتواترت القصص والذكريات، وازدهرت مواهب البعض من أدعياء البطولة ونوادر المنافقين وتباهى السفهاء بما ليس لديهم . وتسابق الآخرين منهم لامتطاء ركب الثورة لعلّهم يحصدون ما لا يستحقون .

واشتعلت المنافسة بين كل المنابر الإعلامية فى الداخل والخارج، الجميع يتسابق وبشراسة للفوز بمعلومة قد تمكنهم الإجابة عن تلك التساؤلات التى يرون معطياتها ويجهلون نتائجها.

ماذا بعد !!!

قالها صابر بفطرته الشعبية، وبقدر مخزونه الثقافى تساءل بحذر وترقب :

ـ ألا يستطع أحد منكم أن يفيدنى ويخبرنى ماذا حدث .. وماذا بعد ؟!

تطوع إسماعيل مدرس الرياضيات بالرد عليه، وهو منشغل بمتابعة شاشة التلفزيون التى تنقل صور الملايين المحتشدة فى كل مكان، وبالأخص فى ميدان الشرارة الأولى المسمى بالتحرير:

ـ ألا ترى ما يحدث أمامك .. لقد استطاع شباب مصر إشعال فتيل الثورة على كل ما هو فاسد .

تدخل حسن طمعاً فى أن يقول شيئاً قد يلفت النظر إليه:

ـ وكأنى أحلم .. معقولة هؤلاء الشباب الذين كنا نسخر منهم وعلى اهتماماتهم السلبية استطاعوا أن يفعلوا ذلك !!

شعر إبراهيم أنه المقصود بتلك التلميحات التى جاءت على لسان حسن، فالتفت إليه قائلاً بانفعال :

ـ نعم كان هذا رأيى فيهم قبل ذلك .. ولكنهم فى الحقيقة خدعونا بمظهرهم، وأثبتوا أنهم خير شباب الأرض .. و..

اتجه بحديثه إلى ميلاد مستطرداً :

ـ قل الحق يا ميلاد .. ألست أنا الذى كنت دائماً ما أعترض على سلبيات الحكومة وأكشف نواياهم الفاسدة من نهب وسرقة خيرات بلدنا .. وأنا أيضاً الذى أعلنت عن آرائى فى

موضـوع الخصخصـة ومـا استتبعها مـن كـوارث كالبطالـة وكثرة العشوائيات.

أجاب ميلاد، وعيناه تكاد تخترق شاشة التلفزيون :

ـ لست وحدك .. جميعنا كنا معترضين على تلك الأوضاع السلبية .

عاد صابر يتساءل بإصرار:

ـ دعونا من الماضى .. المهم ماذا سيحدث بعد ذلك ؟!

قال إبراهيم بثقة :

ـ ستنجح الثورة .. وسنتحول إلى الديمقراطية الحقيقية، وسنصبح من ضمن الدول المتقدمة بعد سقوط دولة رجال الأعمال غير الشرفاء .

ردد صابر هامساً:

ـ ها أنت عدت للشعارات من جديد .. والله لا أحد يمكنه أن يجيبنى على سؤالى غير الأستاذ لمعى .. هو فى الحقيقة ..

لكنه أمسك عن الكلام فجأة، وتلفت حوله مستطلعاً أركان المحل، ثم أردف قائلاً:

ـ لكن .. أين لمعى يا جماعة ولماذا لم يحضر اليوم ؟!

ولأن الجميع غير مهتم بتلك الملاحظة، فلم يجد أحد يجيبه على تساؤله .

كان لمعى فى هذه الأثناء جالساً فى غرفته، وكل حواسه منجذبة إلى شاشات القنوات المحلية والعالمية يتابع أخبار الثورة، والآراء المتابينة حولها .. و..

فجأة شعر وكأن جدران الغرفة تهتز على أثر سماعه صرخة مدوية أطلقتها سارة قبل أن تقتحم عليه مجلسه، وهى تردد بسعادة بالغة :

ـ ناجى يا بابا .. ناجى .. و..

قبل أن يفيق من دهشته، أسرعت هى إلى الريموت وحوّلت المحطة إلى قناة فضائية أخرى، ليفاجئ بولده ناجى وهو فى حديث تلفزيونى قائلاً :

ـ نحن لن نبرح الميدان قبل أن تتحقق جميع مطالبنا .. نحن لم نقم بالثورة من أجل إسقاط النظام فقط، ولكننا نريد تطهير بلدنا من كل بؤر الفساد التى نهشت طموحتنا قبل خيراتنا .

وعندما سألته المذيعة قائلة :

ـ ومن هو قائد هذه الثورة؟!

أجاب بحماس وبلا تردد :

ـ الشعب المصرى كله هو قائد الثورة .

و.. فى هذه اللحظة التفتت سارة تجاه لمعى، وما كادت تبادره بالحديث حتى صمتت متعمدة، عندما لاحظت دموعه الغزيرة وهى تتدفق من مقلتيه دون أن يشعر. وما أن انتهى الحديث التلفزيونى، بادرها لمعى بنبرة مليئة بالشجن قائلاً :

ـ ابنى ناجى أحد أبطال الثورة يا سارة .

اقتربت منه وقبلت رأسه بحنان وهى تقول :

ـ ذاك الشبل من هذا الأسد يا بابا .

أجاب ودموعه لا زالت مستمرة :

ـ لم أكن أعرف أنه يتعايش مع قضايا وطنه .. ولا أنه على تلك الدرجة من الثقافة والوعى .. ابنى ناجى قد ..

ولكنه توقف فجأة عن الاسترسال بعدما اكتشف أن وجنتيه قد غشاها قطرات دموعه الغزيرة، وراح يتخلص منها بكلا كفيه وهو يهمس وكأنه يحدث نفسه :

ـ ربنا يحميه .

وبهدوء حذر قالت سارة :

ـ بابا لمعى .. لدىَّ طلب عندك وأرجوك لا ترفض .. لأننى ..

قاطعها بلهفة متساءلاً :

ـ ماذا تريدين يا غالية .. فأنا لا يمكننى أن أرفض لك طلباً مهما كان !!

أسرعت قائلة :

ـ اتمنى أن أذهب إلى الميدان .. أريد أن أشارك فى هذا الحدث العظيم .. وأن أنال ذلك الشرف .

ترقرقت ابتسامة راضية فوق شفتيه قبل أن يقول :

ـ هل معك رقم هاتفه المحمول ؟!!

كست الحمرة وجهها خجلاً .. وأجابت بحياء :

ـ طبعاً معى .

ـ إذن هيا نذهب إلى هناك .

كررت بهمس :

ـ نذهب .. تقصد أنك ستأتى معى !!

ضحك بملء رئتيه .. ثم قال :

ـ نعم نحن جميعاً .. أنا وأنتى .. وماما صفية أيضاً .

قفزت نحوه تعانقه بسعادة وهى تردد :

ـ أنت أعظم أب فى الدنيا .. و..

ما كادت تستدير لتخبر والدتها، حتى توقفت عندما ترامى إلى مسامعها صوت دقات خفيفة على الباب الخارجى، حيث كانت صفية تطلب الاستئذان بالدخول، وظهرت على أثرها وهى فى كامل زينتها، وقد تخلت عن ارتداء الملابس السوداء لأول مرة منذ سنوات طويلة مضت ..

وفاجأتهما قائلة :

ـ من منكما سيأتى معى إلى ميدان التحرير ؟!!

وكأن الزمن قد توقف عند تلك اللحظة الفارقة فى حياة لمعى، الذى شعر بإحساس مدهش يتسلل إلى وجدانه بعد أن أفقده ذاكرة الماضى كله وتمحوّر فى حاضره فقط عندما رأى صفية فى هيئتها الجديدة.

حاول أن يتخلّص من ذلك الشعور الذى باغته فجأة فى صورة اضطراب نبضات قلبه، مثلما يحدث لأى شاب فى مقتبل حياته عندما يرى محبوبته بعد غياب طويل .. ولكنه فشل فى المحاولة .. وظل حبيساً لتلك اللحظة ومستسلماً لها بلا وعى وهو يتأمل وجهها الجميل فى صمت، كاد أن يكون له صدى يفوق كل ضجيج .

وبلا تردد قال بنبرة دافئة :

ـ أنا معك يا صفية هانم .

واستشعرت سارة بأن تلك اللحظة قد كشفت عن حقيقة ثابتة استقرت فى وجدان والدتها ولمعى طويلاً، وقد توارت فى الأعماق خوفاً أو تردداً للإفصاح عنها .

فسارعت قائلة مع ابتسامة تحمل كثيرًا من المعانى :

ـ نحن هنا .. أعتقد أنه قد حان الوقت لننطلق .. و..

نظرت إلى لمعى بخبث رقيق واستطردت قائلة :

ـ ولا داعى للتردد .

لم تمض الساعة إلا وكانوا جميعاً وسط الحشود فى الميدان بعد أن اتصلت سارة بناجى وحددت موقعه، وتعانقت الأفئدة قبل الأيادى فى لقاء احتضن كل معان الحب الطاهر البرئ .

وقبل أن يتفوه لمعى بحرف واحد، لاحقه ناجى قائلاً بسعادة بالغة وهو يشير إلى اتجاه آخر وسط التجمعات :

ـ انظر يا أبى .. هناك تقف نهى وسط مجموعة من الأجانب تترجم وتشرح لهم معانى الهتافات التى يرددها الجموع هنا.

اقترب منه بحنان، وأمسك بيده ثم تحوّل بنظره إلى سارة وقال بفخر وصدق شديد :

- أتقبلين يا ابنتى الزواج من هذا الشاب البطل !!

و.. تحوّل ذلك التساؤل وكأنه أحد أجمل الشعارات والعبارات التى تنادى بالحرية لكل الكيانات .. و.. للقلوب أيضاً



عندما تتساقط الأقنعة من فوق بعض الوجوه، وتفصح كل نفس بما تضمره للآخر، وتتكشف الحقائق بكل وضوح دون مواربة أو تزيين .. وعندما لاتحتمل الكلمات غير معنى واحد وتفضح الأعين نظراتها، وتستعين المشاعر بقدراتها الكامنة وتبدو أشد افتراساً من وحوش الغابات، ويتوارى الحياء ليفسح الطريق أمام الفجور، وتنتهى الأشياء إلى غير ذات الأشياء .

عندما يحدث ذلك .

تسعد الشياطين بيوم عرسها لانضمام فريق من الأنس لها!!

اقترب مصطفى الشيمى من زينب وهى جالسة فى بهو الفيلا .. وقال بنبرة مترددة :

ـ لدى سؤال حيرنى كثيراً .. وهو عن طبيعة علاقتك بزوجك، وكيفية تعاملك معه .. لقد علمت من ابنتك أنك كنتى لا تمنحيه أى قدر من الاحترام .

أجابت بامتعاض :

ـ أنـت تعلـم كيـف كـان أبـى يعامـل عمتـك .. فهـو أحكـم سـيطرته عليهـا تمامـاً وأفقـدها كـل ملامـح شخـصيتها .. وأتذكر أنها لم تكن تجرؤ على فعل أى شيء قبل استشارته .. لقد كانت لديه هيبة طاغية .. و..

قاطعها بدهشة:

ـ وما الذى يضيرك فى هذا ؟!

قالت بعفوية :

ـ كنت أتعجب من شدة حبها له، بل كانت تعشقه عشقاً يفـوق خيـال الأسـاطير.. وكـثيراً مـا كنـت أغـار مـن هـذه العلاقة العجيبة .. ولست أدرى إن كنت أتمنى رجلاً مثله أم لا .. فمشاعرى تجاه تلك العلاقة كانت متناقضة وغير واضحة فى أعماقى .

عاد يتساءل بحذر :

ـ ولمعى .. ألم يكن هذا الرجل ؟!!

ردت مسرعة :

ـ لمعى لم يكن رجلا فى نظرى مطلقاً .. و..

انتبهت لنظرته المستاءة إليها .. فأردفت بهدوء مصطنع :

ـ أنا لا أنكر أنه رجل مثقف ومتفتح الذهن، وراقى فى تصرفاته ويدرك معنى المسؤلية .. ولكن .. للأسف لم يكن يمتلك خبرات كافية للتعامل مع امرأة مثلى .. كان مسالماً لدرجة الضعف، وخاضعاً بإذلال مقيت .. وليس له معالم لشخصيته الخاصة. كما أنه استسلم لحبه الجارف لى إلى الحد الذى تبادلنا فيه المواقع، وكان من الطبيعى أن أتولى قيادته بطريقتى الخاصة حتى ولو كانت مهينة له .. ولهذا أسقطته من حساباتى .. ولم أشعر بوجوده قط .

ـ ولكنك ضحيتى بكل شيء من أجله .. ألم تحبيه فى الماضى؟!

ـ بقدر ما حاولت أن أحبه فى البداية .. بقدر ما كرهته فيما بعد وأصبحت لا أطيق رؤياه بجانبى .. و..

ضمت شفتيها للحظة .. ثم استطردت قائلة بقرف :

ـ كما أنه بخيل بصورة لا تحتمل .

فاجأها مستفسراً :

ـ إذن لماذا استمر زواجك منه طوال الخمسة والعشرين عاماً الماضية ؟!

طفرت ابتسامة باهتة فوق شفتيها قبل أن تقول :

ـ لعدة أسباب .. أهمها أننى كنت فى إطار كيان أسرى مقبول إلى حد كبير أمام الآخرين، ثانياً مناخ الاستقلالية والحرية الشخصية المطلقة التى كنت أنعم بها بلا حدود فى كل تصرفاتى وعلاقاتى .. ثالثاً موقفكم أنتم جميعاً منى جعلنى أستكين ولا أحاول هدم ذلك المعبد المتهالك .

وبلا مقدمات أو تلميحات مسبقة باغتها وهو يدقق النظر فى عينيها قائلاً :

ـ بالمناسبة .. رأيتك بالأمس تأخذين زجاجة بداخلها مبيد حشرى خاص بالآفات الزراعية، وتضعيها فى حقيبة يدك!!

رمقته بنظرة فزعة، وسيطر الارتباك على ملامحها بشدة، وبصعوبة بالغة قالت كالهمس :

ـ فكرت أن أستعين بالمبيد لقتل بعض الحشرات فى منزلى .

ابتسم بسخرية واضحة، ثم قال :

ـ الحشرات فقط .. أم لديك أهداف أخرى ؟!

لم تجب .. وظلت على صمتها وهى تراقب نظراته إليها .. بينما أردف هو قائلاً :

ـ أم هداك تفكيرك أن بهذه الطريقة سوف تحصلين على الميراث كله بعد أن تتخلصى منى بقتلى بهذا المبيد .

وبملامح جامدة كالصخر قالت بهدوء مثير:

ـ أريد حقوقى يا مصطفى .

انطلق ضاحكاً بهستيريا أقرب إلى الجنون .. ثم قال بتهكم :

ـ هكذا يمكننا أن نتحاور بوضوح . بعد هذه المكاشفة !

أجابت والغل يملأ مقلتيها :

ـ طالما اتفقنا على هذا المبدأ .. فعليك أن تدرك جيداً بأننى لن أبرح مكانى هذا قبل أن أنال كل حقوقى التى سلبتوها منى .

عاد إلى هدوئه وردد باستهانة وبرود :

ـ سأفعل .. ولكن بشرط وحيد .

سألت بترقب وهى تكتم غيظها :

ـ ما هو شرطك ؟!

قال بلا تركيز:

ـ أن تقولى رأيك بصراحة .. فى امرأة غادرة داست بأقدامها كل الروابط الإنسانية فى ماضيها من أجل مصلحتها فقط

.. وخانت زوجها وأمومتها بعد أن اقتلعت ضميرها وألقت به فى طى النسيان .. وتملَّك الشر منها حتى أصبحت أداة لتنفيذ رغبات شيطانها دون أن يرجف لها جفن .. الغاية عندها تبرر كل وسائلها غير المشروعة، بما فيها ارتكاب جريمة بشعة كالقتل .. امرأة سليطة اللسان والوجدان .. تستبيح كل شيء مقابل تحقيق طموحاتها .. مارست الرذيلة بإرادتها غير عابئة بكل قوانين الشرائع السماوية والوضعية .. و..

سكت للحظة وهو يتفحصها بدءاً من رأسها إلى قدميها، ثم استطرد قائلاً :

ـ بالله عليك أخبرينى .. ما هو رأيك فى امرأة مثل هذه التى حدثتك عنها ؟!!

بدت وكأنها تقاوم رغبتها فى أن تبصق عليه، وأجابت بهدوء شديد :

ـ أخبرنى أنت .. ما رأيك فى رجل غرر بفتاة فى مثل عمر ابنته من أجل إشباع نزواته وأطماعه ؟.. كاذب وحاقد وموتور.. استحل أموال غيره وسرقها بلا واعظ من ضميره .. رجل تافه، فارغ العقل يعيش منبوذا من الجميع فى وحدة لا يشاركه فيها أحد غير أفكاره المسممة والمجنونة !!

عاد إلى ضحكاته الهستيرية، ثم أجاب بثبات :

ـ رأيى .. أن كليهما لا يستحق الحياة .. و..

فجأه دسّ يده إلى داخل سترته وتناول مسدسه الخاص، وأطلق منه عياراً نارياً استقر فى جبهتها ليفجر رأسها، فسقطت جثة هامدة على ظهرها، وبهدوء مثير اقترب منها بخطوة وهو يطل عليها بنظرة زائغة، وقال وكأنه لا يزال يحاورها:

ـ أو أحدهما على الأقل .

و .. كعادة الشيطان عندما يغدر بأتباعه بعد أن يتموا تعليماته وينحازوا لتوجيهاته . كان من الطبيعى أن يسلبه ما تبقى من تركيز عقله، ليجعل منه صورة ماسخة لكيان كان فى السابق إنسانًا بعد أن تجرد من طبيعته البشرية وأصبح مجرد شيء هلامى بلا وعى ولا إدراك .

وراح يصرخ صائحاً بكلمات مبهمة غير مرتبة، ثم ينخرط فى بكاء مرير يتبعه بقهقهات انفعالية، وهو يدور حول نفسه وكأنه يبحث عن خطواته التى تاهت من قدميه.

وفى احتفالية شيطانية ضمت كل موبيقات الدنيا من شرور وكراهية وأحقاد، بدأت تتراقص أمام مخيلته وكأنها شخوص حقيقية تتحرك أمامه ومن حوله .

بدت وكأنها طفرات من التمرد قد شملت كل صور قرناء الأحاسيس البشرية .. أراد الحب أن يقول بأنه لا يكفى وحده لأن يمنح السعادة لمتعايشيه، وأظهرت المشاعر الناعمة وجهها الآخر المفترس إذا ما حاول البعض استغلالها كوسيلة لتحقيق مآربهم غير البريئة.

وكشفت التقاليد والأعراف عن أن لها مخالب حادة يمكنها أن تفضح الروابط التى تعتمد على المسميات الافتراضية كالعلاقات الأسرية والزوجية وهى فى الحقيقة تخضع لسلطان الأنا فقط .

وكأن كل قرين قد سأم حياة الظل التى قبع فيها طويلاً وهو خاضع ومتأهب لرغبات صاحبه، وقد حانت اللحظة التى يقرر فيها رغبته بأن يتبادل المواقع معه، والتعامل مع الآخرين بوجهه الحقيقى .

وأمام تلك الإرهاصات التى سيطرت على فكر ورؤى مصطفى الشيمى .

أخذ يندفع فى اتجاه ثم فجأة يتراجع إلى اتجاه آخر بعدما يتأكد بأنه لا يرى غير سراب خياله .

وبعد معاناه شديدة استطاع أن يصل إلى باب الفيلا

الخارجي بخطى زاحفة، ووقف يصيح بنبرة مزعجة مستدعياً خفراءه وعمال مزرعته الذين ما لبثوا أن هرولوا إليه طائعين ومذعورين من هيئته المثيرة .

وقف أمامهم صامتاً وهو يتفحص وجوههم بعينان كادتا أن تنفجرا من شدة احتقانهما، والشرر يتطاير من نظراته .

ثم بدأ يشد من قامته فى محاولة لإرهابهم بشموخه وكبريائه المتغطرس .

وفجأة عاود هذيانه بكلمات متلاحقة فى خطبة أرعبت قلوبهم وأرجفت أبدانهم وأذهلت عقولهم . وهو يردد قائلاً بصوت أشبه بالصراخ :

- أنتم أيها السفلة .. كيف جرأتم على خيانتى .. كنتم تضحكون وتفرحون وتتزوجون وتنجبون، وتأكلون وتشربون وتتسامرون بعضكم مع بعض .

كل هذا من خلال أموالى .. وتركتمونى وحيداً أعيش فى أرضى وبينكم كالنخلة العاقر .. أعلم أنكم تكرهوننى، وأنا أيضاً أكرهكم بشدة ولا أطيق رؤية وجوهكم العكرة .. ولكنى أفضل منكم وأقوى منكم .. فأنتم لا تستطيعوا الخلاص منى .. ولكنى أستطيع التخلص منكم نهائياً .. والآن .

و.. رفع يده بمسدسه وصوبه إلى رأسه، ضاغطاً على الزناد لينهى حياته فى لحظة أمامهم، وهم يتابعونه فى وجوم وذهول قيد حركتهم تماماً .. بينما ظهر بينهم من هو أكثر ثباتاً منهم، وتقدم ليقترب من المنتحر وقال كالهمس :

.. لقد عاش ظالماً، ومات كافراً



ـ الأحزان لا ترحل .. ولكنها قد تموت !!

فإرادة النسيان ليست بقدرة بشرية، ولكنها تكون بمنحة إلهية .

فعندما يستقوى الألم وتعشش الأحزان فى أعماقنا، نصبح كالأغصان الضعيفة التى بلا ساتر يحميها من غزوات العاصفة والرياح التى تهاجمها بلا رحمة، فيترنح بعضها وينكسر البعض الآخر.

فكيف يحمى الإنسان كيانه من هجمات أحاسيسه بالألم والحزن التى تفور فى وجدانه من الداخل، وكيف يتصدى لعذابات ذكرياته التى يتوالى انشطارها فى أعماقه كالخلايا الجسدية دون إرادته وبلا قدرة على مقاومتها .

لا شيء فى الكون كله بإمكانه أن يتصدى لتلك الأنات المؤلمة سوى الحب .

هو وحده القادر على احتواء لحظات الضعف، والذكريات الأليمة وقهر الألم والاحزان .

هو وحده الملاذ الأخير لكل القلوب التى أنهكتها نبضات القلق وغربة الوجدانْ .

هو وحده مصدر البُشرى لكل يائس وحزين، وملهم القوة والأمل والصبر لجرحى الغدر.

و.. من خلال ذلك الإحساس السامى، مهد لمعى لابنته نهى بأن تأتى لزيارته بعد أن طوى من ذاكرته أخطاء تهورها تجاه نفسها وتجاهه كأب، كما أبدى سعادته ورضاه عن اختيارها الموفق بارتباطها بأحد شباب ضباط القوات المسلحة الذى لازمها برعايته طوال مدة احتشادها فى ميدان التحرير، وتطورت بعد ذلك العلاقة بينهما إلى الاتفاق على الزواج، غير أنها أرجأت موافقتها إلى ما بعد ضمان رضى والدها .

وكان لمعى أكثر حرصاً منها على تحقيق تلك الأمنية، وبادر بمباركته لرغبتها دون تردد .

وشعرت نهى بأن بإمكانها أن تسبح فى الفضاء من شدة سعادتها وهى تستمع إليه وهو يقول بهدوء :

ـ أخبرى الرائد محسن بأننى فى انتظاره يا نهى .

اندفعت فى اتجاهه لتحتضنه بقوة، وقد سبقت دموعها خطواتها وهى تهمس على استحياء :

ـ سامحنى يا أبى .. فأنا .

لكنه قاطعها وهو يتحسس شعرها بعطف مردداً :

ـ يا ابنتى .. نحن لا نملك من أقدارنا شيئاً .. وأنا أيضاً لا أملك حيالك غير أن أغفر لك كل شيء لأنك جزء من كيانى، كما أننى لا أعفى نفسى من مسئولية ما حدث لك فى السابق .. والآن كل ما أرجوه أن أراك سعيدة وهانئة فى حياتك الجديدة .

قالت وهى تنتحب :

ـ أنا أشعر بالخجل من نفسى، وأعترف بأننى لا أستحق شرف أبوتك لى .. فأنت أعظم بكثير من كل أعذارنا واعتذارنا .

ابتسم بطيبة وقال بحنان :

ـ يبدو أن حبك لهذا الشاب قد منحك القدرة على موهبة إلقاء الشعر.

ابتهجت ببراءة وهى تردد قائلة :

ـ عندما تراه يا أبى أنا متأكدة بأنك ستحبه كثيراً .

أمسك بطرف ذقنها وضغط عليه برفق .. ثم قال ضاحكاً :

- أعتقد أننى سأحب أحفادى أكثر منكما .. و..

ربت على كتفها مستطرداً :

- هيا اذهبى الآن لتخبريه قبل أن أغير رأيى .

وفى ثوان لم يجدها أمامه .

كان لمعى فى حالة ذهنية شاردة، تتأرجح ما بين التردد والحيرة، فلأول مرة منذ زمن بعيد يفاجئ بأن مشاعره تكاد ترغمه على التفكير فى نفسه .. لم يجد تفسيراً لذلك بل حاول كثيراً ألا يجد مبرراً لتلك الحالة التى أصبح عليها .. فلم يعد يدرى إن كان عاشقاً أم متهوراً أو أصابه فيروس المراهقة الذى عادة ما يصيب البعض ممن هم فى مثل عمره .

وكأنه قد أصبح مغرماً بالتضحية وإنكار الذات، فاتخذ قراره بأن يغيب عن نفسه وعن رغبات وجدانه، وعاد لينخرط وسط مجتمعه الصغير من أصدقائه القدامى بجسده فقط دون قدرة على مشاركتهم فى الثرثرة التى اعتادوا عليها، ولم يكن من العسير على صابر أن يكتشف هذه الحالة التى أصبح عليها صديقه، ففاجئه بزيارته ذات ليلة، وكأنه يرغب فى الانفراد به بعيداً عن المجموعة .. وبادره بلا مقدمات متساءلاً :

- ماذا بك يا لمعى ؟!

أجابه باقتضاب :

ـ ليس بى شيء.

لاحقه بتلقائية قائلاً :

ـ أنا أعرف السر الذى تتكتمه علينا .

انتبه إليه منفزعاً، ثم تساءل بحذر:

ـ أى سر يا صابر.. أنا ليس لدى أسرار أخفيها عنكم !!

قال بنبرة طيبة :

ـ أنت تفكر فى تركنا .. والعودة إلى منزلك القديم .. أليس كذلك ؟!

أسرع يجيبه بارتياح :

ـ أبداً والله .. فالمسكن القديم سيكون من نصيب ناجى بعد إتمام زواجه من سارة .. و..

قاطعه بلطف قائلاً :

ـ إذن ما المشكلة .. فأنا أراك مهموماً وشارداً .. تكون بيننا وفى نفس الوقت لست معنا .. لابد وأن هناك ما يشغلك يا أخى وأعتقد أنك لن تجد أحداً يهمه أن يستمع إلى شكواك غير صديقك الوفى صابر.. أم أنك ترى غير ذلك ؟!

قال مستسلماً بصدق :

- هذه حقيقة يا صابر.. ولكن أمهلنى بعض الوقت لكى استقر على رأى .. وحتماً سأخبرك بكل شيء لأننى فى النهاية أحتاج إلى مشورتك ونصيحتك أيضاً .

فاجأه صابر بالنهوض وهو يردد قائلاً :

- إذن لا معنى لوجودى الآن .. سأتركك وشأنك لكى تتخذ القرار الذى تبحث عنه .. وتأكد بأننى فى انتظارك دائماً .

ومرة أخرى يجد لمعى نفسه وحيداً، وفريسة سهلة لأفكاره المشتتة ولرغباته الجارفة وتساؤلاته الحائرة .

فهو يدرك جيداً أنه سيخطو بقراره فى اتجاه منطقة مليئة بالمشاعر الملغمة بالمحاذير والخطوط الحمراء .. وكان أيضاً يعلم أنه فى كثير من الأحيان تكون سطوة الماضى أكبر كثيراً من تأثير الحاضر، وأن للذكريات مخالب شرسة تدافع بها عن نفسها فى مواجهة كل من يحاول اقتحامها .. ولكنه كان مضطراً على الإقدام بتلك المخاطرة تحت تأثير وإلحاح مشاعره الصادقة التى فاجأته بسيطرتها على وجدانه وحاصرت يقظته ومنامه .

شعر بقلبه يرتجف بنبضات سريعة، وكأنه فى

العشرينيات من عمره وهو يقترب من صفية داخل شقتها بعد استئذنها بالدخول .

بادرته بترحاب كبير قائلة :

ـ أهلا بك فى بيتك يا أستاذ لمعى .

جلس أمامها والارتباك يفترش كل ملامح وجهه .. وردد هامساً :

ـ أهلا يا صفية هانم .

مضت لحظات صمت قاسية عليهما هما الاثنان، فكلاهما لا يعرف ماذا يدور بخلد الآخر، وكلاهما يضمر فى نفسه أسرارًا كثيرة يرغب فى التخلص منها بعد أن أثقلت على صدرهما بإلحاح .

وبنبرة متشككة قالت وهى زائغة النظرات :

ـ سمعت أنك تنتوى الرحيل عنا، وأنك تفكر فى العودة إلى منزلك القديم .. و..

سكتت برهة فى محاولة منها للتحكم فى كلماتها، وكأنها تخشى انفلات بعض المعانى التى تتستر عليها فى أعماقها .. ثم أردفت قائلة :

- فى الحقيقة سيحزننا جميعاً ابتعادك عنا بعد أن اعتدنا على وجودك بيننا .

أجاب مسرعاً وكأنه ينفى تهمة عن نفسه :

- من قال هذا .. أنا الآن فى موطنى الأصلى، فكيف أرحل عن المكان الذى عانيت كثيراً من غربتى عنه .

تلألأت ابتسامتها الرائعة فوق شفتيها وقالت بارتياح :

- يسعدنى كثيراً بأنها كانت معلومة خاطئة .

قال بعد أن استعاد جزءًا من اتزانه :

- على كل حال لقد أفادنى من سرب تلك المعلومة لكى أتمكن من معرفة قدرى عندكم .

عاد الصمت يكمم أفواههما من جديد، وكأن كل منهما ينتظر من الآخر أن يبدأ بالحديث .. وطال انتظارهما، وازداد الموقف توتراً مما اضطره للمجازفة والبدء بالمبادرة قائلاً :

- ما أصعب اللحظات التى يفشل فيها الإنسان أن يترجم ما يجيش بصدره .. و.. وجدانه .

أفزعته بشدة عندما قالت بتلقائية :

ـ عادة ما يحدث ذلك عندما يكون الإنسان غير مقتنع بما يريد أن يقوله للآخرين.

قال وهو يضغط على أحرف كلماته :

ـ هناك فرق ما بين عدم الاقتناع وبين التردد والخوف من المواجهة .

أسرعت متساءلة :

ـ المواجهة مع من ؟!

ـ مع المجهول .. أو ذكريات الماضى مثلاً .

تأملته بنظرة راضية .. ثم قالت :

ـ حقاً الذكريات الجميلة لا تموت .. ولكنها قد تكون فى احتياج لواقع أجمل يحافظ عليها .

ـ أنتى محقة فى كلامك .. ولكن ألا ترى أن الذكرى الأليمة تكون أيضاً فى حاجة لهذا الواقع لكى يمحوها من ماضى الإنسان !!

انتبه للوجوم الذى سيطر على ملامحها فجأة، وأدرك أنه قد وقع فى خطأ التعبير عن مقصده .. فسارع مستطرداً :

ـ مثل حالتى تماماً .. فجعبة ذكرياتى مليئة بالآلام .

حاولت أن تبتسم ولكنها فشلت فآثرت الصمت، مما أسقطه فى دوامة الحيرة مرة ثانية، ولم يجد فى نفسه القدرة على المواجهة أكثر من ذلك، فقرر الانسحاب بشكل مفاجئ وهو يقول بحذر:

- يبدو أن الأرق قد نال من تركيزى .. اسمحى لى بالانصراف الآن لعلى أتمكن من النوم قليلاً وأتخلص من إرهاقى .

أجابت بهدوء مثير:

- حاول أن تهتم بصحتك .. لأننا جميعاً فى احتياج إليك .

تفحص ملامحها وهو يردد فى داخله هامساً :

.. ليتك تمنحيننى تلك الفرصة .

و.. انصرف .

كانت الأيام تمر عليه متثاقلة فى عناد متعمد، وكأنها ترفض بأن تأتى بجديد وتصر على محاصرته بقيود الماضى وأحزانه . خاصة بعد موقفه المتردد من قرار مواجهة صفية وإحساسه بالوهن وافتقاده لجرأة التعبير عن مشاعره تجاهها .

وكأن شبح الماضى قد سيطر تماماً على إرادته، وعمق فى داخله بأنه ليس من حقه أن يتعايش مع رغباته بحرية .

ولأول مرة يدرك بأن مقايضته بحريته مقابل قناعته بالتضحية من أجل الآخرين كانت ظالمة وباطلة، بعد أن ظلم نفسه وقهر حقوقه كإنسان للدرجة التى جعلته يعتاد على ذلك .

وفى لحظة لا إرادية انفجر فى أعماقه إحساس مدهش ومثير بأن يواجه نفسه أولاً قبل أن يبادر بمواجهة الآخرين .

و.. اتخذ قراراً كان يصعب على أى منطق فى إمكانية حدوثه حتى فى أقسى لحظات غيبوبة اتزانه .

وكان قراره هو العوده إلى منزله السابق .

دون مبرر وبلا دافع محدد أو هدف يقصده، وكأنه يريد فى محاولة يائسة أن يحسم أمره مع ذكريات ماضية ويبطل ملاحقتها له الدائمة لعلّ المواجهة مع الماضى فى عقر داره سيمنح أحدهما فرصة القضاء على الآخر.. و.. يتخلص من معاناته المزمنة .

عام كامل لم تطأ قدميه شقته السابقة التى قضى بها ما يقرب من خمس وعشرون سنة .. لم يجد أحدًا بداخلها، ناجى ونهى كلاهما منشغل بأمر زواجه .

انتابته مشاعر متباينة، ما بين الخوف والغربة والاختناق والندم .. والغموض .

تنقل بين حجراتها، فكل شيء أمامه مختلف عما كان فلا تناسق ولا تنسيق وكأنها شقة مهجورة، حيث تبعثرت الأشياء وتراكمت الأتربة فوق الأثاث .. النوافذ مغلقة والهواء خانق كرائحة القبور.

وبتلقائية غير متعمدة راح يهندم ملابس ناجى فى غرفته وينسقها داخل دولابه الخاص، ويرتب أوراقه المبعثرة ويفتح نوافذها ويعيد ترتيب غطاء السرير، ثم انتقل إلى غرفة نهى وفعل ما فعله فى الحجرة الأخرى بنفس الاهتمام .

توقف لحظات وهو يتأمل المكان بنظرة راضية ومستسلماً لذكريات الماضى عندما كان يتولى رعاية أطفاله بنفس الطريقة دون كلل أو تذمر.

شعر بقدميه تكاد تخذله وهو فى طريقه إلى غرفة زينب .

تلفت حوله بعد أن دخلها وكأنه يبحث عنها، ووجد ضالته فى صورتها المرفوعة على جدار الحائط .

بدت وكأنها تنظر إليه، فتسمر أمامها يحملق فى كل جزء من رسمها، وهمس بصوت مسموع قائلاً :

.. ماذا فعلتى بنفسك وبنا يا زينب ؟!

.. سنوات طويلة كنت مجبراً على الإنصات إليك دون أن

تسمحى لى أن أحاورك أو أعترض على أى شيء تقولينه، والآن جاءت اللحظة لكى تصمتي أنتى مجبرة على الإنصات إلى كلماتى دون أن تقاطعينني كعادتك بتجبر ومكابرة .

.. أنا لا أتشفى فيك .. فيكفينني ما أصابك من نهاية مأساوية التى نالت من سمعتك وأيضاً ألحقت بنا عار الفضيحة.

ولكنني فقط أريد أن أخبرك بالحقيقة التى طالما كنتى تراوغين واقعك بها. حقيقة ذاتك وتكوينك الوجدانى الذى أطاح بكل معانى الحب والأمومة والإخلاص والوفاء.

القدر وحده هو الذى أنقذ أبناءك من براثن أفكارك المسمومة وتهوّر مشاعرك ورغباتك المفترسة.

والقدر وحده هو الذى أنقذني من المصير الذى كان ينتظرني فى حياتى معك بأن أصبح قاتلاً أو مجنوناً أو مشلولاً .

.. تعمدتى أن تسقطى هيبة وقدسية كيان أسرتنا بطموحاتك الشريرة دون اعتبار لأية أعراف أو شرائع سماوية .

تعاملتى مع العطاء بالجفاء ومع الرحمة بالخسة، وقابلتى الود بالحقد واستقبلتى التضحية بكل استهانة وسخرية .

وأنا إذا ما كنت نادماً على شيء قد أقدمت عليه فهو أننى أحببتك ذات يوماً .. أما ما يسعدنى الآن هو أننى لم أتعلم منك الكراهية، وفضيلتك الوحيدة معى هى أن بسبب معاشرتك قد أفسحتى الطريق لمشاعرى بأن تعود من غربتها وتهنأ بالحب مع من يستحقه .

و.. استدار منصرفاً بخطى ثابتة دون أن يهتم بإعادة ترتيب غرفتها كما كان يفعل سابقاً .

ماذا حدث .. ؟!!

وكأن بنيانه قد انسلخ عن كيانه واندس فجأه داخل صورة بشرية أخرى .

لم يعد هو.. أصبح إنسانًا وشخصًا مختلفًا، هكذا شعر لمعى بنفسه وهو يسير فى الطرقات متعمداً ألا يستقل أية وسيلة انتقال .. كالطاووس المتباهى بألوانه الزاهية وشموخ عنقه الطويل، وقدميه الشابة التى يختال بخطواته بها بين الآخرين .. كفرس قوى يدب بحوافره المتينة فوق الأرض استعداداً لبدء المنافسة على سباق هو على يقين بالفوز بها .. زعيم لديه كاريزما القبول، وقائد محصن بكل مقومات القيادة، وفيلسوف يرى ما لا يراه الآخرون .

ماذا حدث .. ؟!!

الـضجيج وأصـوات آلات التنبيـه تحولـت فـى أذنيـه إلى ألحـان نـاعمـة، الأرض تحـت قدميـه بـدت ملـساء تعكـس ضـوء الشمس على أغصان الشجر من حوله فتتلألأ أوراقها كمصابيح اختزنت ضوء القمر بداخلها .

لم يشعر بالمسافة التى قطعها وكأن وجدانه قد تحوّل إلى بوصلة تحرك اتجاهاته، وانتهت به رحلته إلى ميدان التحرير دون تعمد .

وقف يستطلع المكان، ويدور بعينيه متأملاً كل شيء يمر من أمامه .

راودته رغبة جارفة بأن يصيح بأعلى صوته مردداً :

.. أنا أيضاً عندى ثورة .

.. أنا أيضاً نجحت بثورتى .

ولكنه لم يفعل !!

وأشار إلى سيارة أجرة وطلب من قائدها أن يعيده إلى وطنه الأصغر بمصر الجديدة.

وبمجرد وصوله لاحظ تواجد مجموعة أصدقائه عند صابر

على غير العادة فى هذا التوقيت، فاتجه نحوهم وهو لا يزال على حالته المستبشرة، وما أن رآه إسماعيل حتى بادره بسعادة بالغة قائلاً :

- بارك لى يا أستاذ لمعى .. لقد تراجع ابنى عن استقالته وعاد إلى الخدمة فى الشرطة .

انفرجت شفتيه عن ابتسامة صادقة وقال معقباً :

- يبدو أننا جميعاً عدنا إلى أنفسنا .. و..

تحوّل إليهم بنظرة شاملة ثم أردف :

- اسمحوا لى بالانصراف الآن .. فأنا عندى مهمة قد تأخرت كثيراً فى إتمامها .

و.. تركهم متجهاً إلى منزله .

صعد درجات السلم بقفزات ثابتة، متناسياً سنوات عمره الطويل الذى يحمله فوق كاهله .

فغايته اليوم مدفوعة بقوة الاقتناع بأن المشاعر تحتاج فى كثير من المواقف لترويضها وكبح جماحها حتى لا تتحول إلى كيانات مفترسة تلتهم أصحابها من ذوى النفوس الضعيفة أو المتخاذلة.

وهو لم يعد ضعيفاً أو متخاذلاً .

اليوم جاء ليسترد حقه من الحياة، ويرد الاعتبار لذاته التى كثيراً ما ظلمها بحجة تضحياته وفقدت تقديرها عند أقرب الأقربين إليه .

وبلا تردد طرق باب شقة صفية، وما أن ظهرت إليه حتى بادرها بثقة قائلاً :

- جئت إليك بلا ذكريات، لكى أشاركك ذكرياتك .. فهل تقبلين الزواج منى ؟.

وكأنها فوضت الطبيعة لتتولى الإجابه عنها، فالتفّ البدر حول وجهها، وأضيئت النجوم فى مقلتيها، وأشرقت الشمس فوق شفتيها بابتسامة رائعة .. ثم قالت :

- ذكرياتى توحدت مع حاضرى .. وأنت أعظم حاضر فى حياتى .

تناول كفيها المستسلمين ليديه وقال بسعادة :

- إذن تعالى نبدأ حياتنا من جديد .. فالشمس لا تشرق إلا لمن ينتظرها .

*** ***

الإصدارات الروائية للأديب أحمد فريد

همسة وداع	نشرت فى ليبيا	1972
الشك	نشرت فى ليبيا	1973
خطوات بلا طريق	نشرت فى ليبيا	1975
نبضات لا تموت	مطبعة النهضة بالقاهرة	1976
الحب وحده لا يكفى	دار غريب بالقاهرة	1980
ممر الذئاب - ثلاثة أجزاء		
دعنى أحاول	دار غريب بالقاهرة	1982
عندما يبكى الرجال	دار غريب بالقاهرة	1983
لا تدمرنى معك	دار غريب بالقاهرة	1984
يا صديقى كم تساوى	دار غريب بالقاهرة	1985
لن تسرق حبى	دار غريب بالقاهرة	1987
سامحنى يا حب	دار غريب بالقاهرة	1990
الحب الكبير - ثلاثة أجزاء		
هو منتهى الحب	دار قباء بالقاهرة	1994
عمر عمرى	دار قباء بالقاهرة	2001
كذبت عليك فصدقنى	دار قباء بالقاهرة	2002
يا أنا لا ترحل عنى	دار قباء بالقاهرة	2004
حب بلا مأوى	دار قباء بالقاهرة	2005

الحب بعد المساومة	دار قباء بالقاهرة	2006
لآلئ الوحل	دار قباء بالقاهرة	2007
من يشترى عمرى	دار قباء بالقاهرة	2008
لا تعاقبنى يا حب	الدار المصرية السعودية	2010

- دار قباء أعادت طبع جميع الأعمال الروائية.
- حصل على جائزة مهرجان القاهرة السينمائى عام 1982 عن أحسن قصة لفيلم "الحب وحده .. لا يكفى" .. إخراج على عبدالخالق.
- ترجمة رواية "الحب وحده .. لا يكفى " ورواية "عندما يبكى .. الرجال" إلى اللغة الصينية.
- تمت ترجمة رواية "هو منتهى الحب" إلى الإنجليزية.
- صدرت الطبعة الثالثة من رواية "هو منتهى الحب" فى كتاب الجمهورية.

*** الأعمال التى تحوّلت إلى أفلام سينمائية :**

- "الحب وحده .. لا يكفى" .. إخراج على عبد الخالق - سيناريو وحوار "مصطفى محرم".
- "عندما يبكى .. الرجال" .. إخراج حسام الدين مصطفى .. سيناريو "مصطفى محرم" وحوار "بهجت قمر".

- "لا تدمرنى معك" إخراج محمد عبدالعزيز.. سيناريو وحوار "أحمد صالح".
- "يا صديقى كم تساوى" .. إخراج يوسف فرنسيس .. سيناريو وحوار "يوسف فرنسيس".

*** المؤلف فى سطور:**

- عضو اتحاد الكتاب منذ بدايته.
- عضو نادى القصة.
- عضو الجمعية المصرية لكتاب ونقاد السينما.
- عضو رابطة الأدب الحديث.

